فى حضرة الرئيس

بقلم الاستاذ عبد العزيز البشرى

ملء السمع ، ملء القلب ، ملء البصر . لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلا عظيما ما استطاع ، وهيهات لامرىء أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله ! وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه ، فكان طالباً عظيما ، وكان مدرساً عظيما ، وكان قاضياً عظيما ، ثم تناهت اليه زعامة أمة فهو فيها ملء السهل والجبل

يحسبك أن تراه لتعرف أنه سعد ولو لم يومىء اليك أحد بأنه سعد ، وكيف يختلط عليك أمره وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بأنه ، وان كان من الناس ، إلا أنه أعظم الناس

بسطة فى العلم والجسم ، بسطة فى العقل والحلم ، وعزم تتزايل الجبال دون أن يتزلزل ، ويقين تتحول الارض عن مدارها ولا يتحول ، ومنطق يصول فى الجبلى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت بسيوفها وعواليها ، ويلطف فى السمر حتى لتمثل أسراب الكواعب وسوست حليها وتضوعت منها غواليها . . وما إن رأيت ولا سمعت برجل فسح الله تعالى له فى البيان وأمكنه من نواصى الحجة كما فسح لسعد ومكن لسعد . ولقد تتقدم لباراته فى الامر تظن أنك قد بلغت منه الغاية ووقعت على الصميم وتمنعت منه بالحصن القوى ، فاهو إلا أن يرسل عليك الحجة حتى ترى أنه ملك الرأى عليك من جميع أقطارك ، وأنك سرعان ماوقعت أسيراً فى يديه تتقلب فيهما تقلباً ، وهيهات لك الخلاص الا بأن تنزل فى أمرك على الاذعان والتسليم !

وان أنس لا أنس ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشاراً كان فى محكمة الاستئناف ، معروفا بشدة الجدل ، فى مسألة فقهية ، وكلما انحط الرجل فيها على رأى أزعجه سعد فطار الى غيره ، حتى اذا ظن أنه تمكن فى أفحوصه (١) ثار عليه بالحجة فوثب الى سواه ، وما زال به صدراً من الليل ينشره ويطويه ، وينقله من رأى الى رأى ، ويحوله من قول الى قول ، حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل لحوار ولا جدل !

ولا أدرى أكان ذاك من سعد مجرد تهد للرأى وتعقب لموطن الصواب ، أم أنه انما كان يتلعب بالرجل تلعباً لينزله على معرفة قدره ، ففى نفس ذلك المستشار غرور وفى أنفه ورم ! أم هى المخيلة (٢) تبعثها فى النفس شدة التمكن من النفس . وانه ليلذ لها أحياناً ألا تمتلك بذلك الواقع

(١) الافحوص مجثم القطاة وهو الموضع الذي تفحص التراب عنه لتبيض فيه (٢) المخيلة : الكبر

الذى اطمأننت به والحق الذى استرحت اليه . فما هو الا أن تصول بالحجة عليك حتى ترى أنك انما كنت تقبض على الهواء ، وأن صرحك الذى أقمته تفرق عنك تفرق الهباء . فتتولى منخذلا عن يقينك وقد ضربك الشك : أكنت مخدوعا عن الواقع ؟ أم ان هذا الواقع دون قوة سعد فهو يصرفه بحجته كيف يشاء ؟ . . . لا أدرى يومها ماذا كانت اربة الجبار . والله أعلم !

وسعد قد علت به السن وشاب رأسه . على انه ، بسط الله فى عمره ، ما زال يمرح من فطنته القوية فى أفتى الفتوة وأمرع الشباب . ولو كتب لك الظفر ساعة بمجلس هذا الذى دوت الدنيا كلها بمجده لنعمت بما لا يلحقه الوصف من عذوبة طبع فى عذوبة مجلس . وحديث كأنه قطع الروض رف آسه ونسرينه . وتضوع ورده وياسمينه ، وبديهة كأنه يقرأ منها فى كتاب ، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب . ونادرة تشيع فيك الطرب ، وتهزك من اعجاب ومن عجب . إذ هو فيما يرسل من القول — فى جده ومزاحه — لا يعدو ما ينبغى له من تحشم ووقار

وانه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يفرخ روعك ، ويفسح لك فى جوانب القول لتقول . وانه ليباريك فى منزعك ، ويدارجك فى حدينك الى ان يرسلك على سجيتك ويسترسل معك ، حتى اذا اطمأننت اليه وظننت أنك فى مساجلة رجل مثلك ، خانته عبقريته ، فوثب به ذهنه الى ما لا يتعلق به ذهنك ، فاذا أنت قد طرت كل مطير ، واذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه الا أن تشعرك انك فى حضرة سعد زغلول !

يا لله من هذا الرجل ! وانه ليعرض فى الامر فيقول فيه مقالا ، وانك لتقدر له بادىء الرأى غاية ما تعاهد الناس من حجة ، واقصى ما تعارفوا من دليل ، فاذا هو قد وقع فى تدليله على ما لم تقع عليه ظنون الناس ، وارتفع الى ما لم تتعلق به اذهانهم ، ففتح فى المنطق فتحاً جديداً وأتى بما يبهر ويروع . وكيف لسعد ألا يرتفع على مذهب حجة الناس وقد رفعه الله على الناس ؟

وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بانه انما يتحدث على آمال أمة ، فهو مهما بارى المجالس فى فنون أحاديثه ، ومهما تدلى به السمر إلى تلك الاسباب الدائرة بين الناس ، يرفه بذلك عن نفسه وعن صحبه . يطفر الفينة بعد الفينة الى حديث الوطن فيشك فيه معنى جليلا ، ثم يعود فيصيب ما شاء الله من حديث القوم . أعلمت ان سعداً لا يصلح الا للوطن ، وأن الوطن لا يصلح الا بسعد ؟

أريد ان أكتب عن سعد . ومن الغرور ان أظن بقلمى الوفاء بوصف سعد مهما تفرج له فى جوانب البيان . فان « البيان انما يجرى فى غايته الى ما تعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك النفحات الالهية التى يرسلها الله تعالى فى العصور الطوال ثنياً بعد ثنى ليقيل أهل الارض الزلة ويهديهم من الضلة فذلك ما تعجز عنه اللغى ويقصر من دونه البيان

وبعد فاذا أردت ان تصف للناس سعداً فلن تستطيع أن تصفه بأبرع من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعانى ما لا يبلغه الكلام وان قدرته العقول وتعلقت به الافهام

الرحالة في الصحراء (١)

بقلم/احمد محمد حسنين بك

ان شق الصحراء شيء صعب ولكشف مجاهلها شيء أصعب ، يعلم الرحالة هذا كله . فلنر اذن ما هو صانع ؟

ها هو ذا فى شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل ، يفكر فى النواحى الكثيرة التى تستلزم احتياجاته العدة فى رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدنى الذى نعيش فيه ، ويدون كل ماينتهى اليه من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء ثم يأخذ فى جمع ما يعوزه من زاد وشراب ومتاع ، وهو حاضر الذهن يقدر لكل شيء سببه ! فهو يحرص على أن تكون عدته جميعاً فى نحو بسيط كثير النفع هين الحمل يجمع طعامه الضرورى منه والكمالى لا يفوته أن يختزن حتى بضعة صناديق من الحلوى ، فتلك الكماليات الشهية لا يستطيع أن يجدها فى الصحراء ، فاذا توافرت له كانت سبباً من أسباب رغده ، يجمع عناصر فنه أدوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب ، تلكم العناصر العلمية التى يعتمد فى نجاحه على متانة بنائها ودقة أدائها لوظائفها ، بعد الماء الكثير ينتقى الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولا سيما الدليل فهو مصباح القافلة . يمتحن الخيام المريحة . ما أشد زهوه بخيمته الظريفة ، هي بيت العلم والقوة والفن ، يهيء أدوات الدفاع عن النفس وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى ومسدسات دقيقة الصنع ، وهذا رصاص يأكل الاحشاء ، وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تخرق الصخر ، يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التى يسهل استعمالها ويصدق أثرها ، ولا سيما ما يختص منها بأمراض المناطق الحارة وما يشكو منه أهل الصحراء

ثم مضى المحاضر يصف حالة الرحالة النفسية واعتداده بنفسه وافتخاره بعدته وتخيله ماستكون عليه رحلته من الابهة وقافلته من القوة ، وكيف أنه قد ملأ يده من كل ما يهيء النجاح لرحلته فتزود من المادة بخير زاد واصلحه واستعان برائد بدوى أمين يقظ كالصقر خبير بالبيد كالحمامة لاتخطىء الى صاحبها السبيل . أما الابل والرجال والخيام والطعام والشراب والآلات العلمية فهو قد أعد من ذلك كله أحسنه وأصلحه ثم حرص على ألا يفوته شيء من المظاهر حتى إنه أعد لنفسه لباساً بدوياً أنيقاً فتان المظهر خلاب المنظر ليطالع به رؤساء القبائل فيأتوا اليه ساجدين

---

(١) اخترناها من محاضرة القيت في المجمع المصري للثقافة العلمية

ثم قال : تلاحظون إذن فى رحلتكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبته وتمكنت منه :

أولا ــ ايمانه المطلق بقوة المادة . ثانياً ــ حرصه على أن يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع . ثالثاً ــ ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون أن صاحبكم يحاول أن يفنى فى سلطان المادة ، أو ان يفنى سلطان المادة فيه . فالمادة شغله وهمه . مازج أثرها تفكيره . هفا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شىء فيه . تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدا مظهر هذا الاثر جلياً فى كل خطوة من خطواته وشارة من شاراته وكلمة من كلماته . هيمنت المادة على ذاته المعنوية جميعا . ما الصحراء سوى شىء مادى ، فلن يكون غزوها بغير سلاح مادى . ولقد اختار لهذا الغزو سلاحا ماضيا ، يغرى شكله بالوثوب ومقبضه بالطعن وحده بوجوب النصر المبين . ماأروع أن يكون اذن فوق بسيط الرمل ! تم كل شىء . لقد أصبح رب البيد وسيد الصحراء

ومضى المحاضر يشرح زهو الرحالة بنفسه وعدته ويسخر من فشل الذين سبقوه ويصف بداية الرحلة وكيف أخذ بجمال القافلة وهى تسير وفق المنهج الذى رسمه والسير هين والرمل لين والصحراء مهاد والابل تخب آمنة واحمالها فى حرز أمين

ثم يصف الصحراء بأنها صبية طيعة . ظبية ألوف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جبينها من نور . النظرة اليها تسبى العينين . المشى عليها يأخذ بالالباب . حياتها موسيقى وشعر . سماؤها أغان وأحلام . الاقامة فيها كالاقامة فى روضة غناء . راضية قنوع . لاترد قاصداً . لا تخيب ظنا . ان صددت أقبلت . وان أقبلت لانت . ضعيفة ذات خفر . فى صوتها حنان . فى رقتها لذة . فى ملاحتها فتنة . فى اغرائها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هى الصحراء . فلئن لم يجئه النجاح يسعى فلينتزعه من مخبئه انتزاعا

وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ويشتد شعوره بنفسه . وينمو يقينه فى الصحراء . انه ليسير كل يوم بضع ساعات فى جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتم رحالتنا مرحلته الاولى . وقد بدأ الآن يغشى « السريرة » والسريرة هى ذلك الشىء المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر . وقدره غالبا من خمسة الى ستة أيام الى اثنى عشر يوما أو تزيد . فقد يأخذ الرحالة فى رود هذه المنطقة الموحشة يأخذ فى اجتياز مرحلته الثانية . يقضى صاحبنا أول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو فى ضحى هذا اليوم أشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت صلته بالعالم الخارجى . واستهل الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذى لم يسبقه اليه أحد . القافلة تسير هانئة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بسر الصحراء . فبين يديه مادة قوية غلابة

وتحت قدميه موكب مهين ذلول . اترون الآن اليه وهو يسخر ؟ أهذى هى اليد التى وصفوها بأنها طاغية ؟ أهذى هى الرمال التى زعموا انها آبار الموت ؟ أهذى هى الصحراء التى قالوا إنها شائكة السبل ؟ ما افكه طوافها انها مغان ومراقص ورياض أنس ولهو وجمال

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . مازال يمجد نفسه حتى كأن هذا الفضاء على رحبه لا يكاد يسعه ، وكأن الارض لا تحمل سواه . وقد اعتزم أن يسير اليوم كله على قدميه ليلقى بذلك على رجاله درسا مجيداً فى الصبر والجلد . وما الى ذلك من صفات البطولة . غير أن مفاجأة لم يكن ليحسب لها حسابا قد حولته من طريق الى طريق ، فمنذ حاول أن يمضى فى السير على قدميه فقد أوجعتهما النعل البدوية تلك النعل الخشنة التى لم يألفها من قبل . تسرب الى نفسه شىء من الضيق فقد أدمت النعل قدميه أو اصابتهما منها ثغور . ليتط إذن جمله . بدأ يتأفف . لا يلبث بعد حين حتى يمل ظهر الجمل . ما أقبح المطى ! أحب اليه أن يسير على قدميه الداميتين من أن يظل فوق جمل بطىء يمشى بسرعة أربعة كيلو مترات فى الساعة . يجىء وقت الغداء فيكون غداؤه البلح الجاف كالحشف البالى . لا طهى اذن ولا شواء اذ لا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم إنه من تقاليد القافلة أن ناسها جميعا يأكلون صنفا واحداً لا فرق بين سيد ومسود وكبير وصغير . البلح الجاف اذن هو طعامه السائغ الشهى ! يند جمل فيختل نظام القافلة وتصعب إعادتها الى سيرتها الاولى . تند جمال أخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فمن صناديق تتهشم الى زاد يتلف الى جهد كبير ينفق فى لم الشعث

ولكن صاحبنا لا ييأس ويعتبر ذلك مناوشة بسيطة من الصحراء ثم نفجأ ، ولكن ما خطبها ؟ أليست تفكك وحدة الركب وتعوق السير وتعطل أدوات الفن ؟ وهذا كله محتمل فى سبيل العلى . . .

يلقى الرحالة عصاه فتزأر به عاصفة من جديد ، عاصفة تملأ الفضاء ، زاحفة كأنما تريد أن تنسف الارض ومن عليها . صوتها يشيب الولدان كأنه صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة فى هذه المرة . تقوض خيامه ، تهشم بعض أدواته العزيزة التى يعرف بها أسرار السماء والارض . أما الابل فقد نفق أقواها وهو لا يدرى لهذا سبيل . أما ماؤه فقد ذهب أكثره لامور لم تكن فى الحسبان . أما دليله ، وليد البيد ابن الصحراء العليم بأسرارها الخبير بمسالكها مصباح القافلة ذراع الرحالة الايمن ، أما دليله هذا فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع . ليس أمامه سوى الفسيح الموحش الرملى . ليس أمامه علم يهديه ولا صوى يسترشد بها فى طريقه . اذا قيل له : « أين نحن ؟ » هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس : « الله أعلم » واذا قيل له : « الى أين ؟ » أشاح بوجهه وقال فى لهجة حيرى : « الله اعلم » فكأنه فى الحق غير مناسبة . . . رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة تسقط على رأسه خيمته الظريفة فتحطمها وتكاد تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهى به الى فاجعة أليمة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليه ويأتمرون به فيسوء المصير

ثم وصف الخطيب موقف الرحالة وكيف تمثل له الموت باسطا يده ، واطل الفشل فحطم مطامعه وكيف هاب الموت وقد كان يحلو له أن يهب حياته للصحراء ، ثم كيف أصبح ذلك الذليل الذى تنتزع منه حياته عنوة وقسراً ثم قال : ويخيل الرحالة بصره ليرى كيف وقع هذا وعدته كاملة ورجاله حاضرون فلا يرى سبباً . بل يرى أن هذه العدد قد انقلبت ضده ، وكذب ظنه وخاب تقديره ، فيجلس كاسف البال حسيراً معتقداً أن الصحراء قد بيتت له الغدر . ويتساءل أهذه هى الصحراء التى كان يشغف بها حباً ويفنى فيها غراما ! أين الفوز والنصر وأين المطامع وأقواس النصر لقد انعكست آية المادة وهوى الرحالة من مهاته الى مستوى عبيده مكرها لا بطلا . . . لقد تغير شعوره وأخذ يحقد على الصحراء ويلعن اليوم الذى وطئتها فيه قدماه . ذلك أن زاده المادى قد أخلى به فجمد ذهنه وتعطل تفكيره

وهنا تنتهى المرحلة الثانية بعد أن يكون رحالتنا قد ذاق من العذاب أمره . غير ان للصحراء أدباً تأخذ به روادها فتصقل نفوسهم وتجلو عقولهم وترتفع بارواحهم يوما بعد يوم . وهذا الادب أشبه بأدب الأم الرءوم بابنها العاق . وشدما أدبت الصحراء رحالتنا وأحسنت تأديبه فبدأت تنظفه من دنس المجتمع وتطهره من ادران الحياة وتنزع من صدره وسوسة الشيطان ، بدأت تغسل عنه قذارة الجسم ودنسه ، بدأت تلهم نفسه فلسفة صوفية وتفيض عليها بهذه الفلسفة العالية

فأخذ يفكر فى أدب الصحراء بعد أن كان لا يفكر الا فى المادة وقوتها . فكأنما خلق اليوم خلقا جديداً . ولا غرو فقد اعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت وتلك الارادة الصادقة ، وعلم علم اليقين بأن ما تكنه الصحراء من أهوال وأخطار ، ويضمره الغيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر الناس من ضر ومكروه ، انما هذا كله رهن مشيئة الله . وها هو ذا يصدر فى عمله عن طبيعة هذا الايمان الراسخ الشديد فهو ينفق اقصى ما يملك من جهد ، ويبذل غاية ما يستطيع من حيلة فى سبيل المطلب الذى اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرهما فى يده ، ولكن امرها جميعا فى يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، واوحى اليه بوحيها الصادق . فأخذ من جديد يجمع شتات قوته المعنوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلته على المضى ، ويملأ نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفى ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضا

وهكذا رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوى . وهكذا رويداً رويداً تفنى المادة ، ويفنى الجسم ، ولا تبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا الفسيح اللانهائى الرملى . وثم تبدو له الصحراء فى صورة صبية وديعة فى سذاجتها رحمة ، فى انوثتها طهر ، فى ظرفها نسك يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكا صالحا ، مداعبة تقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها . وما أجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات !

الملك فيصل

بقلم الدكتور عبد الرحمن شهبندر
وزير خارجيته السابق في سورية

أترك للهاشميين أن يندبوا الابن النبيل ، وللثورة فى الحجاز أن تبكى المجاهد الجليل ، وللجيش المنقذ أن يجزع لفقد القائد المحنك ، ولديار الشام أن تخشع لموت الثائر المدرب ، وللبلاط فى بغداد أن يستكين لسيده الخلاحل ، وللعراق أن يهلع لمليكه الراحل . وأندب باسم العروبة خادماً أميناً من خدمة العروبة ، وبطلا كريماً من أبطالها

يكون الرجل وطنيا ولا يكون مجاهداً ، ويكون وطنيا ومجاهداً ولا يكون حكيما . ولكن فيصل ابن الحسين جمع الثلاثة فكان وطنيا ومجاهداً وحكيما

المرء عظيم بقدر الغاية السامية التى يضعها نصب عينيه ، وعالم بقدر ما يستكشف لها من قوى يدفع بها أهل تلك الغاية الى الامام ، وعامل بقدر مايضع النظر موضع العمل والخيال على محز التطبيق . وكان الملك الراحل عظيما لانه وضع نصب عينيه انقاذ شعوب بجذافيرها ، وعالما لانه استكشف ما فيها من قوة معنوية وثيقة تربط بعضها ببعض ، وعاملا لانه عرف كيف يضع تصوراته موضع التنفيذ

☆ ☆ ☆

ثم ما هي الزعامة يا ترى ؟

الزعامة سلطة شخصية تجمع العدد الوافر من الخلق تحت لواء واحد لتأييد حق من الحقوق مادية كانت أم معنوية

فالزعيم فى العلم هو الذى يقود العقول ليحررها من الجهل ويعطيها مكانهامن بحبوحة البحث والزعيم فى الدين هو الذى يقود النفوس لينقذها من السخافات ويطهرها فى الاخلاق والاعراق

والزعيم فى الوطنية هو الذى يقود الشعب لينجيه من براثن العبودية ولمنة الذل والصغار

فهل كان فيصل زعيما ؟

لقد كنا قبل هذه اليقظة القومية الحديثة متفرقين مشتتين ، حتى أصبحنا غرضا نرمي بالقذائف

فى بلادنا وتشن علينا غارات الاضطهاد فى عقر دارنا ، فلما لمع صوت فيصل قالت له الامة ليك وسعديك ، ثم أتته من كل فج عميق لتجتمع تحت اللواء الهاشمى الذى ارتفع هذه المرة لغاية قومية شاملة كما ارتفع منذ أربعة عشر قرنا لغاية إنسانية عالمية ، فسار وسار الخلق وراءه تحقيقا لما لا ينازعهم فيه منازع من حق فى الحياة الحرة المستقلة

ومضت هذه الجموع حتى قطعت شوطا بعيداً تارة بالعنف والشدة ، وأخرى باللين والهوادة إلى أن بلغت بعض الاقطار العربية مكانا محموداً . ففيصل كان زعيما لانه قاد حركة برمتها فى سبيل النجاة وعمل عمل الجبارة لانقاذ شعب كامل من الاسر ووصمة الاستعمار . وما أغمض عينيه حتى كان لصوته هزة ترددت فى العالم العربى الشاسع من المحيط الى المحيط . أفلا يستحق الرجل الذى يرفع عن قومه ذل العبودية أن يدعى فى سجل أقدارها زعيمها الجبار ؟

☆ ☆ ☆

ان اسلوب فيصل فى الحياة هو الاسلوب الذى يطلق عليه فى الأدب كلة « السهل الممتنع » فمن يتتبع سيرته فى بيته وفى عشيرته وفى بلاطه ومع وزرائه وفى رحلاته وفى مقابلاته الداخلية والخارجية وأعماله الخاصة والعامة — لا يجد تقعراً ولا تعقداً ، وهو بعيد عن الحوشى والمهجور ، ولا محل فى سيرته للمعاظلة ، بل يسيل فى طرق الحياة كما يسيل الماء الزلال فى الساقية خاليا من الكدرات والشوائب ليسقى الزرع ويستدر الضرع . وقد يبدو العمل الواحد من أعماله بمفرده هينا لينا ليس فيه مثار للدهشة أو الاستغراب ، ولكن متى انضمت أعماله بعضها الى بعض فهنالك الاعجاز والسحر الحلال !

قال فيصل وهو يجود بنفسه على فراش الموت : « انى أموت مرتاحا » وقد صدق ، لان القائد الكبير المثخن بالجراح فى ساحة الوغى لا يشعر بغصص الموت ، فالغاية العظيمة التى يزجى الفيالق لبلوغها هى أكبر من أن تدع للالم الى فؤاده سبيلا

وقد مات فيصل وهو هائم بتحقيق خطة عالمية غرضها انقاذ ثمانين مليونا من البشر يتكلمون لغة تدعى العربية ويعانون مرضا يدعى الاستعمار . فاضطراب قلبه وضغط صدره وحشرجة الموت — كل ذلك كان أصغر من أن يلفت نظره عما وضع نصب عينيه من الهدف الاسمى

☆ ☆ ☆

الموت مصيبة تعظم فى عين الصغير الذى لا هم له الا التمتع بملاذ الحياة البهيمية . ولكنه حادث طبيعى عند المشغول بالشؤون الكبرى . فكما تكون الولادة ظاهرة طبيعية لكل مولود كذلك الموت ظاهرة طبيعية للرجل الكبير

ليس حقا أن كل من حمل على النعش وسار الى المقبرة على أعناق الرجال وتوارى فى ظلمة

اللحد انقطع عمله . ان الذى ينقطع عمله هو المملوك فى نفسه الفقير فى عقله الذى أمضى حياته على سطح الارض أنانيا بالمعنى الاعتيادى الحقير ، هو الذى يسمن على هزال اخوانه ، ويثرى على فقر بلاده ، ويرتقى على جماجم أبناء وطنه

ولكن فيصلا كان قويا فى نفسه غنيا فى عقله ، عاش لغيره لانه هزل جسمه لسمن اخوانه وافتقر ماله لثروة بلاده وارتقى فى سلم المجد ولكن على جماجم أعداء العروبة . لذلك ما توارى فى ظلمة اللحد حتى هبت روحه من جديد تبعث الحياة فى المبدأ الذى مات فى سبيله . وما هذه المآتم التى تقام له فى المشارق والمغارب الا شهادة الشعوب العربية بخادم العربية الامين . هذا هو الميت الحى وهذه هي أعمال الخالدين

وفى الصفحات الاولى من علم الطبيعيات أن القوة خالدة لا تتلاشى ، وانما تتحول الى شكل آخر من الحركة والاهتزاز ، تتحول الى صوت أو حرارة أو نور أو كهرباء أو غير ذلك ولكنها لا تندثر . وكذلك القوة الروحية — فهى تغيب عن الابصار ولكنها لا تتوارى عن البصائر ، وهي تموت بالمعنى العامى ولكنها تتحول بالمعنى العلمى

ولئن انقطعت حياة فيصل المادية ولم تعد قائمة على الهواء والماء والغذاء فحياته المضوية يقظى لن تموت ، لانها تحولت الى اهتزازات روحية تتفاعل فى صدور الملايين وعشرات الملايين من البشر . انها لقوة هائلة لانها استطاعت أن تقرب شعوباً متناكرة بعضها من بعض . وانها لجاذبة ساحرة لانها جمعت بلدانا متنائية حول مركز واحد هو الحياة العربية المستقلة . انها لشمس من تلك الشموس الساطعة التى تسبح فى فضاء اللانهاية وتتفاعل فى أركان الازل

هذا هو الخلود العلمى الذى يقيم لصاحبه تذكاراً من الانسانية وينحت له تمثالا من الدهر

أسرُّ إن كنت محموداً على خلق
ولا أسر بأني الملك محمود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها
وإنما هو بعد الموت جلمود

ابو العلاء المعرى

شلالات نياغرا

بقلم الاستاذ امير بقطر

كنت شاهدتها صيفاً والسياح يفدون اليها من أطراف المعمورة والفنادق تموج بعشاق الطبيعة من أرباب المال وربات الجمال . فلم يبق فى نزل غرفة إلا وا كتظت . ولم يبق فى حديقة زهرة تباع إلا وقطفت . ولم يشاهد الزائرون مقعداً تحت الافياء الظليلة إلا وتبوءوه ولا شبرا من الارض على ضفة نهر نياغرا إلا وتزاحموا عليه

هنا شيخ رحل مع زوجته وأولاده من ولايات أمريكا الغربية الجنوبية ليقضى فصل الصيف بين الخمائل وأرائك الاشجار ، حيث يجد فى خرير الشلالات موسيقى تذكره بأيام الصبى ، وفى نسمات الصباح حلاوة ينتعش بها جسمه ، ويجرى لها دم الشباب فى عروقه . وهناك على الضفة الاخرى فى فندق يطل على الشلالات ، ويدخل فى حدود كندا ، سيد فى مقتبل العمر ، يداعب شعر عروسه المتهدل على كتفيها ، كأنه خيوط الشمس ، وقد جاء بها هربا من الاصدقاء والاقارب والاحباب ، فى نيويورك أو شيكاغو أو باريس اولندره أو برلين ، ليقضيا شهر العسل فى نياغرا صيفاً بعد أن كانا قضيا شهراً آخر فى ميناهوس على مقربة من أهرام الجيزة شتاء

وقد خيل لى فى ذلك الحين أن تلك المنطقة وما يحيط بها ، من مدينة سيراكيوز الى بلدة نياغرا فى الولايات المتحدة الى بلدة اورنتو فى كندا ، ما غرست اشجارها ولا زرعت أزهارها ولا رسمت حدائقها ومتنزهاتها العمومية ، الا خدمة للعاشقين ووقفا عليهم . وكأن الطبيعة ماتفجرت ينابيعها فى تلك البقعة الا لتكون ملتقى الاحباب وملجأ العشاق . فما كانت أستار الظلام تسبل على ضوء النهار حتى تنتشر تلك الخلائق على الأرض السندسية أزواجاً ، وقد لبثوا صامتين ساكنين . وشفاههم تتهامس وقلوبهم تتناجى . فالنسيم عليل ، والهواء بليل جاف ، وموسيقى الشلالات تزيد نار الحب اشتعالا ، وتقع بلسما على الافئدة الكثيرة والقلوب الكليمة الخفاقة

رأيت كل ذلك ، ورأيت الريال الأمريكى لايكاد يظهر من حقيبة النقود حتى يتبخر كالأثير وسمعت الكثيرين يقولون إن الشلالات أجمل شتاء منها صيفاً فقلت لأقفل راجعاً الى نيويورك ولنا الى نياغرا عودة . تركتها صباحا وقد هبت الشمس من مرقدها وأرسلت من أشعتها الذهبية على صفيح الماء المتدفق ما تحول الى ألوف المجموعات من الالوان القزحية . ففارقتها وفى القلب حسرة وشيعتها بنظرات من نافذة القطار ولسان حالى يقول : الى الملتقى . وقد تحققت الاحلام . . . . . .

ولما اقتربنا من الشلالات كان لدويها روعة فى قلوبنا وقد خفتت أصوات الطبيعة وخيم السكون وهدأت العاصفة الثلجية فحملت الرياح رشاشا خفيفاً من ماء نياغرا فطافت على وجهه السكك الثقيلة . وما كادت تلفحها نسمة باردة حتى وقف الماء فى مكانه واستحال جليداً . فاخذ زملائى يتزلقون بأحذيتهم المعتادة على أرض يخالها الناظر لوحاً من البلور النقى

وصلنا الآن الربوة العالية التى تطل على الشلال نفسه وهى ضالتنا المنشودة . وقفنا صفاً واحداً نستند إلى حاجز من الصخور والاخشاب ونظرنا الى أسفل الى هوة مخيفة سحيقة تكدست فى قاعها أحجار ذات أحجام ومرتفعات مختلفة . وعلى تلك الاحجار يتدفق ماء النهر بقوته الهائلة واتساعه العظيم فيسمع له زمجرة تصم الآذان وتولد فى النفس رهبة وتنبيء بضآلة الانسان وحقارته أمام قوى الطبيعة

اذ كر اننا وقفنا جميعاً جامدين كالصخر لانبدى حراكا ، ننظر تارة الى الانهار العظيمة المتدفقة من ذاك العلو الشاهق الى الهوة العميقة ، وتارة إلى الضفة الاخرى حيث امتدت تلال اخرى بمحاذاة التلال التى كنا عليها واقفين ، وثالثة الى أسفل حيث المياه فوق الاحجار تتقاتل وتفور وتتلاطم ثم تنحدر الى القاع وتتباطأ فى السير شيئاً فشيئاً الى أن تنثنى بين التلين كالانهار فى الوديان

زادت الطبيعة سكونا وهدوءاً وزاد الماء زمجرة وزئيراً غير ان الشلالات لايظهر جمالها الحقيقى الا فى نور الكهرباء البديع . انتشرت الوف المصابيح على الجانبين ، بعضها على حدود كندا والآخر فى حدود الولايات المتحدة ، وأضيئت كلها فى وقت واحد فكانت تلك المفاجأة ابدع منظر رأيته فى حياتى

انتحينا جهة أخرى بعيدة عن المكان الذى كنا فيه وأخذنا نتمتع الطرف بالشلالات وقد تكسرت فيها أشعة الاضواء الجميلة المتعددة الالوان فظهر وسط الماء خيوط ذهبية متقدة وأخرى صفراء فاقعة وغيرها بنفسجية أو زرقاء مائلة الى السواد . وكان يتخلل تلك الخيوط المتذبذبة المدلاة من المرتفعات الشاهقة ماء زلال رقراق يتلألأ فى الفضاء كانه ذوب بلور فى شفوفه ولمعانه . وأنا كذلك واذا بفتاة تهمس فى اذن جارها : إن شلالات نياغرا من ناحية كندا اجمل منها من ناحية الولايات المتحدة . وما كادت تأتى على آخر عبارتها حتى صحنا جميعاً : هلموا الى كندا

هناك تغتسل الطبيعة ليلا ونهاراً فلا تشوبها اتربة ولا رمال ولاغبار . فتارة تسقى ارضها ديمة المطر وطوراً يحمل اليها النسيم رذاذاً من الماء المتطاير من الشلالات ، تارة تجد الارض جافة ناعمة مصقولة وأخرى تلقاها كتلة واحدة من البلور النقى ، وفى لمح البصر يذوب البلور كالشمس وقت الاصيل فينحدر ماؤه الى وسط التل ويترك تحته طريقاً مرصوفا شديد اللمعان

هناك عند مدخل الفندق وقفنا نشاهد فعل الضوء الكهربائى فى مياه الشلالات وقد انعكس منها الى الجهة المقابلة الوان اخرى قزحية تفوق ما رأينا فى الجهة الاخرى جمالا ولمعانا ، وانتشر من حولها نقط تترقرق على الاشجار ترقرق الطل على ورقات الورد

طفقت اخترق كومات الثلج الجميلة حتى اقتربت من الشلال لالقى النظر الاخير . وليقف معى القارىء قليلا فأنا خارج المدينة والطبيعة ساكنة وقد وقفت ندف الثلج من السقوط ، والاشجار قد تناثرت اوراقها واكتست اعوادها وأغصانها وجذوعها بثوب ابيض قشيب ، وخرير الماء يتعالى شيئاً فشيئاً . كلما اقتربت منه أنظر يمينا ويساراً وأماماً وخلفاً فلا أرى انساً ولا جناً ولا أشاهد سوى بياض ناصع فوق بياض

جميل ان نشاهد الشمس تبعث بأشعتها الذهبية فتبسم الاشجار وترقص الازهار وتغرد الاطيار ، ولكن اجمل منه ان تصمت الطبيعة فهى صامتة اجمل منها ناطقة

هناك اتخذت الحاجز المطل على هوة الشلال السحيقة لى مقعداً ، فطوراً اشاهد ورائى الثلوج تذوب فتتدفق مياهها وتملأ الاودية والسهول ، وطوراً اطيل النظر الى الشلال فيزداد فى نظرى جمالا فوق جماله ! وما اسرع التقلبات الجوية فى هذه الارجاء . سرعان ما اختفت ملكة النهار وهبت ريح شرقية باردة فتحول ماء الثلج الذائب جليداً

وبعث الشلال برشاش من مياهه الى الاشجار التى بجانبه فبللها . وكان الماء لا يكاد يستقر على الشجرة حتى تعصف الريح الباردة بها فتحوله جليداً ، وأخذت هذه العملية فى الاستمرار حتى استحالت تلك الاشجار الى منظر من أجمل المناظر الطبيعية ان لم تكن اجملها . يخيل اليك ان جذع الشجرة شمعة كبيرة بلورية وان غصونها المتفرعة شموع صغيرة شفافة وقد ظهرت اعوادها فى بطونها كالفتيل فى باطن الشمعة . كنت اكسر الاغصان وأضعها بين يدى فاذا هى كالبلور لونا وكالشموع شكلا ولا تمكث فى يدى طويلا حتى تكسب من حرارة الجسم ما يذيبها فتزول الشمعة ويبقى الفتيل

فى بركة . . .

تنصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة فى حبل مجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى من مجاريها

إذا النجوم ترامت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

البحترى

وقفة في ظل تمثال

لرعمسيس الكبير

بقلم الدكتور خليل مطران

يا صورةً شبّهتْ صخراً بإنسانِ ... ملأتِ من رَوْعَة قلبي وإنساني

لاوجهَ أبهى ولا أزهى برونقه ... من وجهك النَّضْرِ في منحوت صوان

مَن المليكُ الذى تَثْنى جلالتهُ ... عنه ويَمضى فما يَثنيه من ثان

هذا فتى النيل، ذو التاجين من قدم، ... هذا فتى مصر، « راعمسيسها الثاني »

« سيزوستريس » الذي دانَ العتاةُ له ... من قومِ حِثٍّ ومن فرس ويونان

إن قصر الجيشُ أغزى الرأيَ أمكنةً ... ما فاز خاتلُها منها بامكان

«ممنون» مردِى الاعادي غيرَ محتشم ... بطشاً ومُدْيِ الأيادى غير منان

مستقبل الشمس عبْرَ الشمس ماطلعت ... صُبحاً برأسٍ من الجلمود رنّان

أناظرٌ أنتَ لمّا همَّ كيف خطا ... من الصفا غير معتاقٍ ولا عان

هو المضاء تراءى فاستوى رجلاً ... هو الإباء رأى ضعفى فحياني

قاربتُ سُدَّته العليا على وجل ... ولم أخله يناجيني فناجاني

تراه عيناي مغضوضاً لهيبته ... طَرْفاهما وتراني منه عينان

أرابني أننى قبلاً بَصُرْتُ به ... محنطاً مدرجاً في سِود أكفان

أكْبِرْ برمسيس ميتاً لن يُلِمَّ به ... موتٌ وأكبر به حياً إلى الآن

تقوض الصرحُ فيما حوله ونجا ... على التقادم لم يُمسَسْ بحدثان

لولا تماثيله الأخرى محطمةً ... ما جال في ظن فان أنه فان

في مصركم عزَّ فرعونٌ فما خلدوا ... خلودَهُ بين أبصار وأذهان

ولم يتم لها في غير مدته ... ما تم من فضل إثراء وعمران
ولم يسر بينها مثل سيرته ... ساع إلى النصر لا ساه ولا وان
من منتهى النيل في أيامه اتسعت ... إلى أعاليه في نوب وسودان
ومن عتيّ الذرى في الطور عن كثب ... إلى قصيّ الربى في أرض كنعان

* * *

في أرض كنعان . . . إلاّ أن عسكره ... أحس ما بأس شعب غير مذعان
أعاد كرّاته فيها وعاد على ... أعقابه بعد إيغال وإمعان
فما يُرَى نقعُه وهو الضباب علا ... تلك الربى فدحاها دَحْوَ قيعان
حتى تهبّ به ريح فترجمه ... عنها عشوراً بأذيال وأردان
وتبرز القمم الشماء ذاهبة ... في الأوج تحسبها أجزاء أعنان
مغسولةً بدماء الفجر طالعها ... من أدمع القطر دُرٌّ فوق مرجان
سفوحها حرة والهام مطلقةٌ ... وكل عان بها بعد الاسى هاني
ومَوقعُ الذلّ ناءٍ عن أعزّتها ... كموقع الظل عن هامات لبنان
لكنما الخُلْفُ في الجارَين صار إلى ... حُلْفٍ وأدنى إلى الصُلح الأشدّان
وإن خيرًا حليفاً من تروض به ... صعباً وتوليه ودًّا بعد عُدوان
تصافيا فصفا جو العلى لهما ... وطوّعا ما عصى مما يرومان
وطالما كان ذاك الالفُ بينهما ... على صروف الليالى خيرَ معوان
في مبدإ الدهر والاقوام جاهلةٌ ... زها بمبتكرات العقل عصران
عصر بما ابتدع الفينيق واخترعوا ... فيه له فضل سباق ومحسان
وعصر مصر الذي فاقت روائعه ... آى الحديثين من فخْمٍ ومُزدان
مما توالت على الوادى به حقب ... زينت حواشي الصفا منه بأفنان
حضارتان سما شأوُ النهى بهما ... أفادتا كل تثقيف وعرفان
ما زال بعثهما يرجى إذا رجعت ... إلى خلائقها الأولَى البلادان

وباتحادهما في الشأن من قِدَم ما زال يرتبط الاسنى من الشان

* * *

يا مجد رمسيس كم أبقيتَ من عجب فيه ومسئلة عنه لحيران
أبغِضْ به فى العدى من هادم حَنِقٍ وحبذا هو للتاريخ من بان
عالى الصروح كما والى الفتوحَ بلا رفقٍ بقاص ولا عطف على دان
أكان مَنزلُهُ في المجد منزلَه لو رق قلباً لشيب أو لشبان
أم كان ما أدركت مصرٌ على يده ذاك المقام الذي أزرى بكيوان
تخير الخطة المثلى له ولها يعلو فتعلو به والخفض للشاني
ما زال بالقوم حتى صار بينهم إلهَ جُنْدٍ تُحابيه وكُهَّان
ورَبَّ سائمةٍ بلهاء هائمةٍ تشقى وتهواه في سر وإعلان
يسومُها كلَّ خسف وهى صابرة لاصبرَ عقلٍ ولكن صَبْر إيمان
إلا . . وقد بلغت في الخافقين به مكانة لم تكن منها بحسبان
إن بات في حُجُبٍ باءت إلى نصب يلوحُ منه لها معبودُها الجانى
فبجَّلت تحت تاج الملك مسميها وقبَّلت دمَها فى المرمر القانى
واليوم لو بعثت من قبرها لَبدَا لها كما خَبَرَتْهُ منذ أزمان
ما زال صخراً على العهد الذى عهدت بلا فؤادٍ وإن دَاجَى بجُمان
مسخرًا قومه طُراً لخدمته وما بغى . ربَّ سُوءٍ مَحْض إحسان
مُخَلَّدَ المجد دون القائمين به من شُوْسِ حَربٍ وصناع وأعوان
مخالساً ذِمَّةَ العلياء مضطجعاً من مَهْدِ عِصْمَتِها في مضجع الزاني
بحيث آبَ وكلُّ الفخر حِصَّتُهُ ولم يؤب غيره إلاَّ بحرمان
كم راح جَمْعٌ فِدَى فردٍ وكم بُذلت في مشترى سيِّدٍ أرواح عِبْدان
لموقع الأمر فيهم كلُّ تكرمةٍ ومُنفِذِ الامر فيهم كلُّ نسيان

* * *

كلاَّ وعزَّتِهِ فيما حلفى وبغى ... وذُلٌّ من قبلَ الضَّيزَى بإذعان

همُ الذين على عُسْرٍ بطلبهِ ... قد أسعفوه بأموالٍ وفتيان

وهم على سفه دانوا بمن نضبوا ... تخولوه مَديناً حقَّ دَيان

فيمَ الالى صنعوا أنصابَهُ دَرَسَتْ ... رسومُهم منذُ باتوا رَهْنَ أكفان

وما لأسمائهم دونَ اسمهِ دُفنت ... شُعْثاً منكَّرةً في رَمس كتمان

إن يجهلِ الشعبُ فالحكم الخليقُ به ... حقَّ العزيزين من وال وسلطان

أو يرشدِ الشعبُ يُمْسِ الامرُ في يده ... ولا اعتدادَ بأملاك وأعيان

ليت البلادَ التي أخلاقُها رَسَبَتْ ... يعلو بأخلاقها تيَّارُ طُغيان

النار أسوغُ وِرْداً في مجال عُلًى ... من بارد العيش في أفياءِ فَيْنان

أكرِمْ بذي مطمع في جنب مطمعه ... ينجو الأذلاَّء من خَسف وخُسران

يهب فيهم كإعصارٍ فينقلهم ... من خَفْضِ عيشٍ إلى هَيْجاءِ مَيدان

بعضُ الطغاة إذا جلَّت إساءتُه ... فقد يكون به نفعٌ لاوطان

في كل مفخرةٍ تسمو الشعوب بها ... تفنى جموعٌ مُفاداةً لإحْدَان

كم في سنى الكوكب الوهاج مَهْلكة ... في كل لمحٍ لأضواء وألوان

* * *

لم ترقَ في حقبة مصر كما رقيت ... في عصره بين أمصار وبلدان

لما رمت كل نائي الشوط ممتنع ... بسابقين الى الغايات شجعان

ألا ترى في بقايا الصرح كيف مضوا ... بأوجهٍ باديات البشر غرَّان

وكيف عادوا ورمسيس مقدمهم ... إلى الربوع بأوساق وغلمان

فبعد أن صال بين المالكين بهم ... صار الكبير المُعلَّى بين أوثان

بالامس يدنيه قربانٌ لآلهةٍ ... واليوم يأتيه أرباب بقربان

إن يَغْدُ ربَّهم الأعلى فلا عجب ... هل من نظام بلا شمس لاكوان

جهالةٌ ولدت فيها قرائحهم ... ضروب نحتٍ وتصويرٍ وبنيان

مما لو استطلع الرّاني بدائعه ... لما انقضى عجبُ المستطلع الرائي

في كل منكشفٍ كنزٌ ومستترٍ ... مَظِنّةٌ لطلبايا ذات أثمان

آياتُ مقدرةٍ جلّتْ دقائقها ... تخالُها صُنْعَ مرّادٍ من الجان

تقادم العصر الخالي بها ولها ... تمُّ الجديدين من حِذْقٍ وإتقان

لم يعْتورْ مَجْدها مهدوم أروقةٍ ... ولم يُذِلْ فَنّها مهدود أركان

وراض كلَّ أبي هَوْلٍ بها حَرِدٍ ... دمىً تهاويلها آيات إحسان

وزاد رَوْعَتها إنقاض آلهةٍ ... فيها حَوانٍ على أنقاض تيجان

سجودُ ما كان مسجوداً له ، عظةٌ ... في نفس كل لبيب ذات أشجان

وربَّ رزءٍ بآثارٍ أشدُّ أسىً ... منه ملِمّاً بأشخاصٍ وأعيان

والتاج أشجى إذا ما انقضّ عن صَنَمٍ ... منه إذا ما هوى عن رأس إنسان

* * *

بيتٌ عتيقٌ يرَى فيه الكمال على ... ماشابَهَ اليوم من أعراض نقصان

حجّته وبه من طول مدته ... وفضل جدّته للطرف حسنان

ما زال والدهر يطويه وينشره ... يزْهَى جلالا رواقاه المديدان

في النقش منه لأهل الذكر قد كتبت ... آيات ذكرٍ بإحكام وتبيان

تنزلت صوراً واستكملت سوراً ... في مصحفٍ من دعامات وجدران

شاقت بفتنتها الاقوام فاقتبسوا ... منها أصول حكومات وأديان

ومن حلاها استمدُّوا كلَّ تحليةٍ ... بلا محاشاة إغريق ورومان

* * *

هذا هو المجد نَفنى والبقاء له ... على تعاقب أجيال وأزمان

تاريخ مصر ، ورمسيس فريدته ... عقد من الدر منظوم بعقيان

ما مثله في طروس الفخر من قدم ... طرس من الفخر أوعى كل عنوان

العهد الجديد

في حياة الانسان العقلية

بقلم الاستاذ فريد وجدي

أخذته من الصفحة ١٠ وما بعدها من الجزء الاول من كتابي « على أطلال المذهب المادي » الذي فرغت من تأليفه في سنة ١٩٢١

قلت عقب ما ذكرته من اقرار العلماء بعجزهم عن تعليل الظواهر الكونية :

كل هذه النظرات الصادقة ، المبنية على العلوم المحققة ، أيقظت العقل من غفلاته ، وكبحت من رعوناته ، وكسرت من شرة ادعائه ، وفلت من حدة خيلائه ، وأرته رأى العين ان ما علمه من أسرار هذا الوجود ذرة لا تدرك في بحر لجي ، أو هباءة لا قدر لها في هذا الاطلاق العالمي ، وان وراء ما أدركه منه من هذا الجانب المادي عوالم لا تنتهي الى مدى تقف عنده ، وكائنات لا تصادف في ترقيها تخماً تلتزم حده

أدب عقلي بعيد الغور لم يتحل به الانسان في عهد من عهوده قبل هذا الدور الاخير . فقد كان في كل طور من أطواره شديد الاعتداد بمدركاته ، عظيم الثقة بمحسوساته ، الى حد أنكر معه ما وراء حسه وهو غافل عن انخداعه لقصوره ، واستهزأ بكل مالا يتفق وعلمه وهو جاهل بمبلغ غروره ، حتى من صرح من الناس بجهله فعل ذلك اما تواضعاً أو تصنعاً . أما اليوم فقد أدرك الانسان جهله بعلم حسي ، وفهم قصوره بدليل مادي . وهذا الادب كان من أعظم آثاره عليه أن غير وجهة نظره الى الوجود . فقد كان ينظر اليه من وجهة انه مجال مادي بحت . تكفي في سبر غوره حواسه الخمس ، فكان الوجود في نظره محدوداً على لانهائيته ، مفهوماً في جملته . ولكنه اليوم ينظر اليه من وجهة انه مجال غير محدود تعمل فيه قوى لا يحيط بها عقل . المادة وجه من وجوهها ، وليست أصلا لوجودها . والقوانين التي تؤثر عليها مظهر من مظاهر تلك القوى الكلية تعمل في الكائنات على نظام يناسبها ، لا ان تلك القوانين هي كل ما في الوجود من العوامل المؤثرة

هذه الوجهة الجديدة من النظر باحالتها المادة الى قيمتها الحقيقية ، حقرت في عينه هذا الوجه المحسوس للوجود ، ونبهته لما وراءه من الكون غير المشهود . فدبجته الى ذلك العالم ، ولكن لا على الاسلوب القديم من تسليم الخيال قيادة العلم ، بل على الاسلوب الجديد من المشاهدة والتجربة .

فبعد ان كان يقصر علمه الطبيعى على هذا المجال الضيق من عالم المادة الظاهرة ، ويعنى بالطبيعة هذه الباحة الحرجة من مدركات حواسه القاصرة ، أخذ يمد علمه الى ما بعد هذا العالم المحسوس ، ويوسع من مدى ادراكه للطبيعة نفسها ، فلم يحصرها فى هذه الدائرة الضيقة

هذا تطور بعيد المدى أحدث من النتائج فى كل فرع من فروع العلم ما غير وجه الفلسفة ، وقضى على قصر النظر قضاء لا قيام بعده . وقد عولنا فى هذا الكتاب على ان نقف الناطقين بالضاد على حقيقة هذا التطور العظيم الذى يعتبر بحق اكبر تطور سجله التاريخ لارتقاء الانسان من الوجهة الادبية ، دفعه لادراك ما وراء هذه الحجب المادية من العوالم العلوية

وانى باعلانى لهذا العهد الجديد فى حياة الانسان العقلية ، أرمى لان أحدث فى أرواح الشرقيين وعقولهم نفس الاثر الذى أحدثه فى أرواح الغربيين وعقولهم

ولست أقصد من قولى العهد الجديد للعقل البشرى ان هذا الترقى الواسع النطاق وصل الى كل درجات العقول . فان فى الناس بل وفى العلماء أنفسهم من لا يبالون بغير ما ألفوه ولو سقطت السماء على الارض . ولهؤلاء أشباه ونظائر فى كل بلد من بلاد العالم

ولقد تحطمت نظرية الانتخاب الطبيعى الذى بنى داروين عليها مذهبه ، وما يزال فى الناس من يظنون انهم حلوا بها أسرار التطورات الحيوية ، الى درجة لم يبق معها ظل من شك . بل فى الناس من لا يزالون يقولون بالجوهر الفرد الذى لا يقبل الانقسام . وهى النظرية التى وضعها ديموكريت ولوسيب منذ اكثر من الفى سنة . ويخيل اليهم انهم أدركوا سر الوجود ادراكا لا يسمح لهم بالاطلاع على ما ينفيه من المباحث الجديدة

هذه الطائفة تقمصت من روح الجمود ما لا يتفق وروح كل باحث متثبت . وصبغت العلم بصبغة الجبار المتمرد . مع انه فى الواقع معترف بنقصه ومتواضع فى حكمه . واتخذت من بضعة الافتراضات التى اضطر اليها العلم للتعليل المؤقت ، ومن بضعة الوجوه العاملة فى الكائنات ، ذريعة الى بناء فلسفة عرجاء خرقاء عمياء لحمتها وسداها قصر النظر والدعوى الباطلة والكلمات المقعرة

ادعوا انهم تحرروا من ربقة الايمان بالغيب . ومادروا أنهم وضعوا فى أعناقهم أغلالا من الايمان بالطبيعة ينوءون بحملها ، وفى أرجلهم قيوداً يرسفون فى سلاسلها . وزعموا انهم ترفعوا عن العامة فى القول باله خلق العالم بقدرته وارادته . وما علموا انهم تسفلوا الى القول بالهية المادة ، ونحلوها بخيالاتهم من القوى والقدر ما لا يمكن تحقيقه بحجة ناهضة ، ولا يتأتى شهوده بتجربة حاسمة

وخيل اليهم انهم بلغوا من بعد النظر وسعة العقل الى ما يسمح لهم بأن يهزأوا بأصحاب العقائد الجامدة . وما فهموا انهم بوقوفهم فى دائرة ما حصلوه من هذا القدر الناقص من العلم قد وضعوا على أعينهم حجباً من الغشاوات ، وعلى عقولهم كسفاً من الغباوات ، لا تسمح لهم برؤية شىء غير ما تخيلوه وجمدوا عليه

عبقرية جيتي (١)

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

من العبقريين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة ، لأنه يرتقي الى اوجه في بعض أعماله فيأتي بخير ما عنده أو بكل ما عنده ، وتعرفه حق عرفانه فلا تحتاج الى تجربة له بعدها ولا تصيب في التجربة الجديدة إلا تكراراً لاجديد فيه

ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقريته في كل جزء من كتاباته ، فبعضها لايدل على مداها كلها ، وتكرار القراءة فيها ينتهي بك كل يوم الى جديد ، فلا غنى لك عن التجربة بعد التجربة لسبر غورها والاحاطة بمداها والحكم عليها في جميع احوالها

وجيتي من هؤلاء العبقريين الذين لاينبيء قليلهم عن كثيرهم ، لانه لم يجمع نفسه في قطعة واحدة ولا موضوع واحد ، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة : الموضوع الواحد عنده لايدل على كل موضوعاته والجزء الصغير لايدل على جملة الموضوع . فكل فكرة له هي أصغر من الرجل في جميع أفكاره كما أن اليوم الواحد في غمار ايامه هو أصغر لامحالة من سنيه الثمانين

تلك احدى الصعوبات التي تعوق عن التعريف بهذا العبقري الكبير ، وصعوبة أخرى مثلها هي بساطته وقلة احتياله في تعبيره وتجافيه عن التزويق والتفخيم في سياقه ، فلا اصطناع ولا ابهام ولا زخرفة ، وانما هي أفكار يلقيها اليك على هينة كما جاءته على هينة . وكلها سواء عنده في الحفاوة والخطر ، فلا الكبير عنده مستهول ولا الصغير مزدرى ! وانما هو المارد الجبار يحمل الصخرة كما يحمل الحصاة ويمشي بأثقل أحماله وأخفها في خطو وئيد وقوام قويم

واذا كان بعض الكتاب يمشي الى غرضه كما يمشي البهلوان على الحبل ، أو كما يمشي اللاعب على يديه ، أو كما يمشي الراقص المترنح ، أو كما يمشي الكاهن الوقور لا ينظر الى يمنة ولا الى يسرة ، فجيتي ليس يعرف هذه المشي وليس يركب الى غرضه حبلا ولا يترنح ولا يتكلف ، بل يخيل اليك أحيانا من قلة النصب في حركته أنه يمشي الى غير غرض كما يمشي المتريض في ساعة فراغه . فاذا أفضيت معه الى غايته فقد تتعب وقد تنكر المسعى ، ولكنك تشعر أنك كنت تمشي مع دليل أمين ولم تكن تتبختر مع رقاص أو تقفز مع بهلوان ! وأنت بعد ومذهبك في حركات الاقدام : فالجارى على الحبل ابرع ولا ريب في فنون هذه الحركات من السالك في الطريق كما يسلك سائر الخلق ، ولكنه

(١) عن كتاب « تذكار جيتي »

بهلوان وليس كل انسان ببهلوان ؛ ويلعب والناس لا يتعلمون المشى ليلعبوا على الحبال !

وكلمة واحدة — مع هذا — تسمعها من حيتى تنبئك أنه قد وصل الى مدى لا يصل اليه الكثيرون . ولا يلزم أن تكون هذه الكلمة رنانة ولا موشاة ولا صاخبة ولا أنيقة ، فقد تنبئك نبأها الصحيح ولا حظ لها من رنين أو وشى أو صخب أو اناقة

يحدثك رجل عن القاهرة ساعات ، فيسبق الى وهمك أنه سكنها وجاس خلالها وأطال المقام فيها ، ثم ما هى إلا كلمة يزل بها لسانه حتى تعلم أن ما سمعت بحذافيره إن هو الا وصف ناقل لا وصف شاهد ، وان حديث صاحبنا عن القاهرة إن هو إلا حديث قارىء أو متلقف من الأفواه

ويقول لك غيره كلمة واحدة عن القاهرة لاتستغرق الثوانى فضلا عن الساعات المتواليات ! فتجزم جزم اليقين أنها كلمة العارف الذى زار وأقام وأطال المقام . فهل يلزم أن تكون فى هذه الكلمة بلاغة خارقة أو نبرة متكلفة أو كناية ملفوفة ؟ كلا بل لا يلزم حتى أن تكون صحيحة كل الصحة فى معناها . إذ هناك الخطأ الذى لايخطئه إلا من شهد واختبر ، وهناك الخطأ الذى يقع فيه الانسان لقلة الرؤية والاختبار . بل هناك الخطأ الذى هو أدل على المشاهدة من الصواب . فالشرط الوحيد اذن فى تلك الكلمة أن يقولها القائل بعد رؤية ومعرفة ، وفى هذا الشرط وحده قيمتها التى تربى على قيمة الاخبار المسهبة يرويها لك من لم ير ولم يعرف . فأنت حين تنوى أن تذهب الى القاهرة لا تذهب اليها مع من تلا عليك تلك الاخبار وبسط لك تلك المرويات ، وانما تذهب اليها مع من نبس بالكلمة الموجزة ذات الدلالة وان لم يكن على صواب

إن كلمات حيتى عن عالم الحقيقة هى من طراز هذه الكلمة التى لاطنين فيها ولا كلفة . فاذا سمعتها قلت : « أجل ! » هذه كلمة ناظر وعارف ، هذه كلمة السر التى يصطلحون عليها فى ذلك المكان ، هذه « هي الاسرار المكشوفة لكل انسان ولا يكاد يراها انسان » كما قال

فمن شاء أن يستدل على عبقرى كهذا بكلامه فليتريث كثيراً ولا يقنع بالنموذج اليسير . فكل فكرة هنا أصغر من المفكر ، وكل ثمرة هنا وراءها شجرة كبيرة ووراء الشجرة حديقة أكبر ! وقد تدل الثمرة على شجرة واحدة حملتها . أما الحديقة فلا تدل عليها إلا ثمرات من عدة أشجار

نعم نحن حيال حديقة عامرة لا شجرة واحدة : نحن حيال شاعر وحكيم ومصور وعارف بالموسيقى ووزير وباحث فى النبات والتشريح وطبقات الارض والنور

وفى كل علم من هذه العلوم كان لبحثه أثر ولرأيه قيمة ، ففى النبات اهتدى الى نظرية « التحور » ورد اجزاء الشجرة المختلفة الى جزئين فى أساس التكوين . وراقب النمو المطرد والنمو المعكوس وغيرهما من ضروب الطوارىء على حياة النبات . والتفت الى أثر العصير الغذائى الكثيف والعصير الغذائى الملطف فى اختلاف الجذوع والاوراق والازهار

وفى التشريح اهتدى الى العظمة الوسطى فى الفك الاعلى التى تنبت فيها القواطع . وكان المظنون

انتهـا لا توجد إلا فى الحيوان . ورجع بتركيب الدماغ الى الفقار فى الحيوان والانسان ، فكان فى تقريراته هذه فى علمى النبات والتشريح رائداً لمذهب التطور وطليعة من طلائع العلم الحديث

أما فى طبقات الارض فقد كان له رأى محترم فى تركيب الحجارة الحبية والمعادن . وكان مصراً على مناقضة نيوتن فى تحليل الالوان يأبى كل الاباء أن يرتاب فى بساطة النور ، أو يقبل التحليل القائل بتركيبه من عدة ألوان ، وانما اللون عنـده مزيج من النور والظلام : يكثر فيه قسط النور ويقل قسط الظلام فهو اللون الاصفر . ويكثر فيه قسط الظلام ويقل قسط النور فهو اللون الازرق . ومن الاصفر والازرق يتولد الاخضر . ومن هذه الالوان تتولد سائر الالوان . وكلما قارب اللون الظلام كان أثره فى النفس الى الحزن ، وكلما قارب النور كان أثره الى البهجة والانشراح

وقد أعرض علماء الطبيعة عن هذا الرأى ولم يأخذ به إلا نفر من غير الاخصائيين . ولكنه على كل حال رأى لا يستحق الازدراء . . وقد عرف له فضله علماء عصره وما بعده فيما عدا هذا فقال كاروس : « اننا إذا رجعنا الى اقصى ما نستطيع فى تاريخ الجهود التى قام بها الباحثون لادراك فلسفة ما لتركيب الدماغ وجدنا أن الفكرة الاولى عن تحور أشكال العظم وردها جميعاً الى شكل واحد ، انما هي فكرة يرجع فضلها الى جيتى » . وقال سانت هلير : « لعله لم يصدر من عشر سنوات كتاب واحد فى علم وصف الاعضاء أو علم النبات خلو من وسم هذا الكاتب المشهور »

وقال هلمهولتز : « ان جهود علماء النبات وعلماء الحيوان لم تزد على أن تجمع المواد والمشاهدات حتى تعلموا كيف يرتبونها على انماط يتبين منها التسلسل ووحدة النسق . وهنا وجد عقل شاعرنا الكبير مجالا يوائمه وكان الوقت مؤاتيا له والمواد المجتمعة فى علم النبات وعلم التحليل المقارن كافية للاستعراض الواضح . فادخل فى العلم فكرتين هاديتين تحفلان بالثمار حيث كان معاصروه يهيمون على غير هدى أو يقنعون بتسجيل الوقائع اليابسة »

ونحن لو قصرنا النظر على كتبه فى الادب لاتسع أمام أعيننا أفق يتراءى فى كل جانب . فما من خاطرة جالت فى عقل انسان إلا كان لها مجال فى عقله ، وكان له فيها رأى العارف المختبر إن لم يكن له فيها رأى المصيب المعصوم

ومعظم اخطائه هي أخطاء النظر المستريح الى جزء واحد ، لا أخطاء العاجز عن التأمل والاستبانة . أو هي اخطاء السائر الذى لم يبلغ أمده ولا يزال فى طريقه ، لا اخطاء المحجوب عن الحقيقة بعيدها وقريبها . وما شئت بعد هذا من رأى نافذ فى الأخلاق والعقائد والاجتماع وسرائر النفس والتاريخ والفن والامم والرجال : يفهم ما حوله ويشعر به ويستمرئه كأنه يتحفز لعمل له أوقاته ومحاولاته . ثم يلقى بالرأى كأنه يتنفس أو يؤدى وظيفة من وظائف حياته له بأدائها غبطة وارتياح ، لا كأنه ينهض بعبء أو يعالج مشقة مفروضة عليه ، وهذه هى الآراء التى تفيض بها كتبه وأحاديثه ويحتويها هو كلها ولا يتأتى لرأى منها أن يحتويه كل الاحتواء

خزانة الذكريات

بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقى

فى قرارة قلبى خزانة حافلة ، أحتفظ فيها بكل لحظة من تلك اللحظات المليئة الشائقة التى هي وحدها كل ما يحيينا نحن الفانين فى هذه الحياة

وأنا بهذه الخزانة غنى قانع . اذا صوحت من حوالى جنة الدنيا ، وتساقطت أوراق المنى مثل أوراق الخريف المصفرة ، فزويت عنها الطرف آسفاً وانطويت على نفسى مستوحشاً ، تفتحت مغاليق خزانتى وانفرج بابها رويداً رويداً من غير نأمة ولا صرير ، وتحركت دفائنها لعين خيالى كأنى فى حلم . فيتمثل لى ، بل يخامر حواسى منها ، طيف من أطياف الماضى الدفين ، طيف لحظة سعيدة أحالها القدم نورانية روحانية خالصة من كل كدر ، صافية من أدنى شائبة . كما يحيل تقادم العهد عصارة الكرم فى الدنان والرواقيد خمراً شعشعانية ، تلطف روحها وتلطف فكأنما لم يبق منها غير اللون والعطر ، فأنعم — من جديد — بما نعمت به جوارحى من قبل ، ولكنه فى هذه المرة نعيم كنعيم الخلد ، هو نعيم الخلد ، وهل يبقى من احساساتنا الماضية الدفينة غير عنصرها الباقى الخالد؟ اليوم يا خزانتى وقفت على كنز سينتهى حظه اليك . فافسحى له مكاناً بين أنفس كنوزك وذخائرك !

كنا الغداة فى ضيعة من قرى الريف ، وقد مد لنا مضيفنا الكريم سماطا يكاد ينيخ بما فوقه من صنوف الطعام والشراب . فكنا نقصف قصف المستهترين المترفين فى ولائم الرومان وقد علا صخبنا وضحكنا . وشغلنا الالماماً عن تحف الطبيعة الرائعة يشرف عليها مقصفنا الصاخب : ساحة من رمال ذهبية تناثرت عليها مضارب خيام للعرب الرحل ، فى خارج هذه الخيمة جمل ضارب بجرانه ، وفى جانب تلك عنزة مشدودة بحبلها المتراخى الى وتد ، وفى داخل الخباء اعرابية مبرقعة وفى أذنيها حلق من فضة وفى أنفها شنف من مرجان ، وهي تدق البن أو تدير الرحى . ثم تحيط بساحة الرمل الذهبى حقول زمردية من المزارع الشاسعة النامية تتخللها بقاع عارية مخططة أخاديد أخاديد لم تخرج شطأها بعد ، ويخيم فوق الجميع أفق لازوردى ساطع لا تعكر صفوه غيمة واحدة عابرة

ولكن كنا فى شغل عن المجالى الشعرية والمدركات النفسانية . كنا نقصف قصف المستهترين المترفين فى ولائم الرومان

واذا بفتاة أعرابية أقبلت علينا فى ازارها الاسود الضافى ، فما هو الا ان رفعت الينا طرفها الفضيض الكحيل حتى أحسسنا اننا انتشلنا من حياة دارجة عادية الى حياة أعلى ، الى حياة فوق مستوى حياتنا ، لا تسمع لنا لاغية . وفاضت الاحساسات الشعرية من داخل أنفسنا على الطبيعة التى كانت منذ هنيهة تتبرج لنا سدى . أما الفتاة فجمالها فن فريد عجيب . وجهها نافه كاسف وشفتها السفلى متقلصة ممدودة ، مطرقة العينين مسبلة الاهداب دون ان يشفع فى ذلك حياء يضرج وجنتيها أو يثير الحياة فى أساريرها . ولكن . . آه تماسك يا قلبى ! رفعت الينا عينيها فانفتحت عوالم سحر وضياء ، سحر عميق لا يدرك كنهه ولا يحل عن المسحور طلسمه ، وضياء غريب يهتك الشغاف بارقه ويضل العقول هديه . وسطع وجه الفتاة بمعان تتجدد وتتولد ويمور مائرها وتتكاثر كالكتائب على فؤاد الناظر فتأخذه عنوة واقتحاماً فى هجمة واحدة ، وزها لون خديها فاذا حمرة خفيفة ترف عليهما كحواشى الاصيل مترقرقة هافية تخبو وتسطع وتطفو وترسب . وقد غمر جسدها من الفرع الى القدم حياء عذرى لمجرد اشتباك لحاظها بلحاظنا ، فجسدها العذرى يهتز من انتعاش ورى كالغصن المترعرع يستقبل الندى والنسيم

شجعنا حياء الفتاة على مكالمتها فى أدب ولطف ، فهى تختلج وتتعثر من الخجل ، وتبتسم فتستدير وجنتاها كالكمثرى الشهية ، وتبدو ثناياها كاللؤلؤ المنضود ، وتكاد شفتها الممدودة المفترة تقطر شهداً . ولكنها بعد كالهرة البرية تنفر من الملاطفة فتنتفش اساريرها وتكاد تخدش

والآن . . أزف الرحيل وانفرطت آخر الساعات الهنية التى حييتها فى هذه البرية المصغرة الى قرب فتاة نفور من أوابد ظبائه . فوداعا ! وداعاً يا ظبية الرمل التى ابتعثت فى جوارحى احساسات عداد حياته ، ونفثت فى روحى حرارة كحرارة رمضائه ، ولئن ودعتنى مشافهة واستحييت ان تودعينى مصافحة فان نظرتك ، آه نظرتك وابتسامتك كانتا أشجى وقعاً فى قلبى من المصافحة ، بل من القبلات والعناق

خزانة قلبى اليوم ما اغناك وما أسعدنى بك ! فافتحى لى مغاليقك كل مساء امرح عين خيالى فى كنزك الجديد فيحيا فى نفسى شجوها الجديد القديم . وان شعارك هذا المنقوش من قديم بعمق على شغافك وفى قرارتك هو نفسه شعار (جوته) الحكيم مدى حياته المديدة :

لا تغيضى من عيونى أبداً ... يا دموع الحب وابقى سرمدا
إن عيناً غاض منها دمعها ... تبصر العالم جدباً فدفدا
لا تغيضى من عيونى أبداً ... يا دموع الحب وابقى سرمدا

الفروسة

تاريخها ، ومبادئها ، ورسومها

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

إذا كان الاقطاع أساسا جوهريا لصرح النظم الاجتماعية والسياسية فى العصور الوسطى فان الفروسة أهم حجر فى صرح الاقطاع ، بل لقد كانت دعامة الاقطاع تحكم بناءه وتربط أطرافه المتباينة ، وتصل بين طبقاته الرفيعة والوضيعة . وكانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر فى بدء العصور الوسطى قبل أن تنتظم الفروسة وتزدهر ، الحرية والرق ، فكان من الناس أحرار وأرقاء . فلما اضمحل نظام الرق ، وسما شأن الفروسة ، كان أهم ظاهرة للتفريق بين البشر ، النبل والمنبت العام ، فكان من الناس فرسان أو نبلاء أو سادة ، وكافة أو عامة . هذه الفروسة التى لبثت قرونا زهرة المجتمعات النصرانية والتى لعبت دورا عظيما فى الحروب الصليبية ترجع مبادئها ورسومها وتقاليدها الأولى الى أواخر القرن الثامن ، أو أوائل القرن التاسع ، ثم إلى نظم الاقطاع فى عهد النورمان ، فنراها فى عصر شارلمان تتخذ صورة احتفال يزود فيه الفارس الفتى بالسلاح . والظاهر انها كنظام حربى ترجع الى أقدم من ذلك ، إذ يذكرها المؤرخ تاسيتوس فى حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ويصف رسومها . ولكن الفروسة كشرف عسكرى رفيع يمنح فى نوع من الرسوم الدينية ، ترجع الى القرن الحادى عشر فقط . بيد أن الفروسة الاسلامية أقدم وأعرق ، فهى ترجع إلى عصر الاسلام الاول فى القرن الأول للهجرة (القرن السابع الميلادى) ولكنها لم تكن نظاما دينيا او سياسيا ، بل كانت خلة وموهبة وكفاية ، وكان لها أيضا نوع من الرسوم والتقاليد . ويفرد ابن قتيبة فى كتابه « عيون الاخبار » بابا للتحدث عن الفروسة وآدابها ، ويورد عن أصولها ورسومها بعض الاقوال المأثورة . أما الفروسة النصرانية فلم تزدهر وتستكمل عناصر الاستقرار ، وتغدو فوق صفتها الحربية نظاما سياسياً اجتماعياً يرجع إلى اصول ورسوم مقررة أدمجت فيها الحقوق والواجبات معاً ، قبل القرن الحادى عشر

وقد كان النبل كما رأينا قاعدة الفروسة وخاصتها الأولى . وكان التفريق بين النبلاء والكافة فى مراحل الاقطاع الاولى غامضاً فى الغالب . ولكنه تقدم منذ أصبحت وراثة الضياع المقطوعة حقاً مقرراً ، ثم غدا فى النهاية قاعدة لانتظام الناس فى طوائف قوية كانت أظهر عنصر فى مجتمع

العصور الوسطى . والنبلاء يتكون من عنصرين مختلفين : الاول وراثة الضيعة بما تحمل من تعهدات فى أداء الوجبات الكبرى ، والثانى أهلية القتال على ظهر الجواد ، أو بعبارة أخرى الفروسة (Chevalerie) والصفة الثانية تحمل فى ثنيتها فكرة الملك أيضاً ، فهى تتضمن القدرة على اقتناء العدد الغالية اللازمة لأداء واجبات الفارس . وقد كان امتزاج هذه الفكرة بفكرة الملكية العقارية وفكرة المنبت الحسن ، يمد الامير الاقطاعى بخدمات صفوة من المقاتلة . وكانت هذه الصفوة وأسرها أرقى عناصر الاشراف (الارستوقراطية) وأقوى الطوائف فى مجتمع بربرى كمجتمع العصور الوسطى

وقد أفضى شرف المنبت الى تحول هذه الارستوقراطية الى طبقة بكل معانى الكلمة ، يتعذر على الكافة اقتحامها والاندماج فى سلكها دون مصاعب ورسوم جمة . وكان من وسائل هذا الالتحاق أن يشترى الفرد العادى ضيعة تلحق بها صفة النبل (Terra Nobilis) أو يسبغ الملك أو أحد كبار النبلاء عليه صفة النبل هبة منه لخدمات أداها أو كفايات معينة عرف بها ، فتلحق عندئذ صفة النبل هذه بالارض التى يملكها وتنتقل الى عقبه بالارث . وواضح أن خلق النبلاء على هذا النحو كان وسيلة حسنة لاحاطة العرش بأشخاص يؤيدونه ويرعون مصالحه . وهذا العصر هو فى الواقع فاتحة لنهوض الملكية وبروزها من اغلال الاقطاع ، وتبوء نظمها مركز الغلبة والسيادة على ما عداها من نظم السلطان والحكم . وكانت وراثة النبل تنحصر بادىء بدء فى صف الذكور ، ولكن ميل العروش الى اتباع السياسة المتقدمة أفضى قبل بعيد الى منحها الاناث أيضاً ، وغدا ممكنا أن تهب الانثى صفة النبل لعقبها فيصبحوا فرساناً وسادة ونبلاء

ولما استقر النظام الاقطاعى وتحسنت موارد الارستوقراطية بتحسن الزراعة ، غدا الواجب الذى يقضى على الفارس باتباع الامير على نفقته الخاصة ، بالنسبة للسادة الاقطاعيين ، أرفع ضروب الشرف والكرامة . وكان الفارس اذا ارتدى عدده المنيعة الشاملة وتقلد سلاحه الذى يدجه من الرأس الى القدم ، وامتطى صهوة جواده الذى يغطيه الحديد والصلب مثله ، أضحى أهلا للقاء عشرات من العامة غير المسلحين ، فاذا اجتمع من هؤلاء الفرسان عدة استطاعوا أن يرهبوا المئات والالوف من أتباعهم ويلجئوهم الى الخضوع والطاعة . وواضح أن استفحال مثل هذه الخصومة بل وجودها كان يؤدى فى كثير من الاحيان الى معارك دموية لا يعدم العامة فيها وسيلة للانتصاف لانفسهم من عسف الفرسان وجورهم . على أن ارتباط الحقوق بالواجبات بالنسبة للفريقين ، كان فى ظروف الحياة العادية يدعم نظاما اجتماعياً كنظام الفروسة تنقصه جميع عناصر الاستقرار السياسى

وقد ندهش حينما نتأمل رسوم الفروسة وتقاليدها ، ويخيل لنا انها رسوم إحدى الهيئات الدينية أو الجمعيات السرية الكبرى . والواقع أن هذه الرسوم التى يجب حوزها لنيل شرف الفروسة قديمة جداً ، وقد أشار اليها تاسيتوس كما قدمنا فى حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ، وقد اتخذت منذ نشأة الفروسة صبغة من الروعة والجلال تكاد تدنو من القدسية . وخلاصة هذه الرسوم

هي أن المرشح للفروسة قبل أن يزود بالسيف والمهماز يجوز بعض التجارب والاختبارات ، ويقضي أياما في الصوم ، ثم يمضي ليلة في كنيسة عتيقة مظلمة يستسلم فيها الى التفكير والتأمل ، وبعد ذلك يعطى السيف والمهماز ، ويلطم على خده أو كتفه لطمة خفيفة اشارة الى آخر إساءة يسوغ له أن يغضي عنها . هذا ومع أن الفروسة نظام اجتماعي سياسي فانها لم تخل من الصبغة الدينية ، بل كانت هذه الصبغة قوية فيها الى حد أن نظام الفروسة ذاته كان يشبه فيما يختص بالحقوق والواجبات بالهيئات الكهنوتية المقدسة . فالفارس المبتدىء يلزم بالاستحمام وارتداء السترة القصيرة ، على نحو ما يقع في إحياء التنصير . ويتسلم الفارس سيفه على هيكل الكنيسة من يد احد رجال الدين ، ويسبق الاحتفال بقبوله كما قلنا صوم وابتهال ، ثم ينادى فارساً باسم الله والقديس جورج والقديس ميخائيل . ويقسم الفارس بعد ذلك أن يؤدي واجبات مهنته — فقد كانت الفروسة مهنة كما رأيت — وليس من ضمان بوفائه سوى التربية والقدوة الحسنة وحكم الرأى العام . وخلاصة قسمه أن يقول الصدق وأن يؤيد الحق وأن يحمي المنكوب وأن يستعمل الرقة والمجاملة في معاملاته وان يطارد اعداء الدين وان يحتقر مغريات الرفاهة والامن وان ينتصف لشرفه في اية مغامرة خطرة . وقد بلغت هذه الرسوم في القرن الحادى عشر مكانة علية من الجلال والتقديس حتى كان واجباً على الملك ذاته لكي ينتظم في سلك الفروسة ان يخدم البلاط وصيفا ثم سيداً مرشحا للفروسة ثم يمنح بعد ذلك المهماز الذهبي او رمز الفروسة

وكما كان للفروسة رسوم وعهود خاصة بها فكذلك كان للفروسة رياضات والعاب خاصة بها . وللفروسة فضل في تطور هذه الرياضات والالعاب الارستوقراطية ، فقد عدلت عن الالعاب الاولمبية القديمة حيث كانت تعرض المناظر العارية فتبعد العذارى والنسوة عن ارتيادها وتبعث الفساد والتهتك الى أخلاق الشبيبة ، وآثرت عليها الالعاب الرزينة المحتشمة . وكانت المبارزة احب هذه الالعاب الى الفرسان والسادة ، فكانت تعقد لها حفلات شائقة يهرع اليها الفرسان من كل صوب ويشهدها اشرف الكواعب والعقائل واجملهن . وقد تستغرق الحفلة يومين او اكثر وتجرى فيها المبارزات الفردية بين فارسين يتقاتلان بالرمح ، وللظافر أن يغنم سلاح خصمه وجواده ، وله فوق ذلك ان يسمى سيدة من الحاضرات تشرف على بقية المبارزات والالعاب وتسمى ملكة الحب والجمال ، ومن ثم كانت فكرة الحب تقترن بكلمة الفروسة في العصور الوسطى ، وكان حب امراة يعني في نظر الفارس المتيم اجلال الجنس اللطيف كله . واحياناً كان الفارس يؤثر بتأمله غادة معينة وتكون علائقهما نقية افلاطونية فقط . وقد كان دور الفروسة في هذا الشأن مستقى خصبا لآداب مستفيضة من قصص جميلة رائعة ونظم رقيق حماسي واناشيد وروايات شائقة لا حصر لها . هذا ولم تكن الفروسة تقف في رياضاتها عند النزهة واللهو ، بل كانت ايضاً تنظم معارك صغيرة وتقيم تمارين جدية من مهاجمة حصن والدفاع عنه الى غير ذلك

المهاجر

بقلم الاستاذ حليم دموس

هي القصيدة التي ربحت جائزة مستشفى ربيز السنوية عام ١٩٢٧

هجر الروض وعاف الثمرَه ... ولياليَ أنسهِ المزدهره
ومضى يضرب في آفاقها ... ولسان الدهر يروي خبره
ركب الأهوال سيراً وسرًى ... نادباً تلك الربوع النضره
وهو لا يدري أيقضي لهفاً ... أم من الدرهم يقضي وَطَرَه
يلتقيهِ بين أشواق الردى ... والردى يُنشب فيهِ ظفره

* * *

بحياتي هاجرٌ مغتربٌ ... غالب الدهرَ ولاقى عبرَه
كان في موطنهِ معرفةً ... وهو في المهجر أمسى نكره
ألف الأسفار حتى راضها ... واستذلَّ البحرَ حتى حيَّره
وهو في الفجر يناجي شمسهُ ... وهو في الليل يُناجي قمره
يحطم اليأس جناحيه كما ... تحطم الريح أصولاً نخره

* * *

قف على الشاطىء واشهد ساعةً ... موقف التوديع وارسم صوره

وانظر البحر فكم سارت به ... سفنٌ في عرضه منتشره
تحمل القوم جموعاً وعلى ... موجها أدمعهم منهمره
هجروا الأوطان في محنتها ... لينجوا أمةً محتضره
بينما عقدهم منتظمٌ ... إذ تراه دراً منثره

* * *

ما انتفاع الأمِّ من أبنائها ... إنْ تناءوا وهْيَ عند المقبره
يرجع الليث إلى غابته ... بعد أن يطوي الفيافي المقفره
وتغيب الطير عن أفراخها ... لتوافيها بأشهى ثمره
ويصان الدرُّ في أصدافه ... ثم يجلى كالدراري النيره
هكذا النازح عن أوطانه ... يذكر الربع ويهوى أثره

* * *

رب أرضٍ حسبت حنظلةً ... وهي لو تسقى لكانت سكَّره
وركازٍ تحت أطباق الثرى ... بات في صدر الغواني جوهره
وبلادٍ لو حماها أهلها ... لاستحالت أمةً مقتدره

* * *

أدر الدفَّة يا ربانها ... فالحمى حنَّ إلى من هجره
قل لمن أثروا : أعينوا وطناً ... يتعزى ببنيه البره
أنتم الروح لجسم ناحلٍ ... أنتم الماء لتلك الشجره

الطغاة وحرية القلم (١)

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

فى عصور الظلمة التى تمر بالامم آناً بعد آن يعمد الباطشون البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة . وفى سبيل هذا التقييد يصلون أرباب الاقلام حرباً لا رحمة ولا هوادة فيها ، فمن إرهاق إلى سجن ، إلى نفى وتشريد . وهم فى حربهم هذه يندفعون ضد الكتاب كاشرة أنيابهم محمرة عيونهم مفتحة خياشيمهم — أشبه الاشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية . ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم خاطر إلا اذا اطمأنوا إلى انهم حطموا هاته الاقلام الى غير عودة لان تكتب وأذلوا نفوس حملتها إذلالا لاقومة لهم من بعده

هذه الغرائز المفترسة التى تهيج فى نفوس البغاة لحرب القلم وحملته ، لاتهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالغاً ما بلغ أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر بها صاحبها مايجول بخاطره وما يمليه عليه خياله أو يتسق لمنطقه . وكل ما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس من شاء فيتلو ما فيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها الى حيث شاء . والامر كذلك سواء كانت هذه الورقة جريدة أو مجلة أو كتاباً من أى صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه الورقة حولها من القوة التى يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذى يحشد ويسخر فى سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشانق وما هو أكبر من ذلك من الوان الارهاب والارهاق ؟ وهل انتصر الظالمون يوما على القلم وأربابه ؟ أم كان للقلم النصر أبداً آخر الامر وباء مطاردوه بالخيبة والخذلان وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكرى واتعس الأثر ؟

اما ان يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم فى ذلك كل العذر ، فحرية القلم هي المظهر الاسمى لحرية الانسان فى أسمى صورها ومظاهرها . وحرية القلم انما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لاعامل من عماله ، رب تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والانشاء مالا سبيل اليه إلا فى جو الحرية المطلقة ، وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقاولو وضع هو فى غيابات السجون ، بل تدفع ذكراه لخلق هذه الحرية اذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن مانزال نرى ثمرات الاقلام منذ آلاف السنين

(١) اخترناها من كتاب « ثورة الادب »

الماضية هي التى تهز العالم حتى اليوم هزاً وتنشىء فيه الى اليوم والى الابد ألواناً من الخلق جديدة . ذلك بأن القلم هو الاداة لتصوير النفس الانسانية فى التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الانسانية التى تلتمس هذه النواحى المضيئة من حياة الكون هي أبداً نفس قوية لا تقف فى وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها . نفس تحلق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذى تريد ايضاحه او الحرية التى تريد نشرها أو الجمال الذى تعالج تصويره ، أو الخير الذى تعمل البثه وإذاعته . فاذا اهتدت الى ما ابتغت نفثت منه على القلم ما يسطره على الورق . وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محجوباً عنهم ضياؤه . ويرون أن هذا الضياء هو الذى يبعث لهم فى الحياة نوراً يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم . واذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه . فان لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً

هذه القوة التى تنبعث من القلم على صحف الورق تنقلها الى الانسان هى أقوى وأبقى ما على الحياة من سلطان . هى قوة الايمان القائم بالنفس القوية متى امتلأت ايمانا فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هى هذه القوة الانسانية تصل بين الانسان وقوى الكون العلياوتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكمن القوى المادية المضطربة التى يستند اليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى تكون هذه القوة المادية وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل ما فى الحديد والنار من بأس وهول الى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ ازل الكون الى أبده ! هذه القوة الروحية الكبيرة التى يصدر القلم عنها وتوحى هى اليه هى مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شىء فى الوجود . بل هى التى تشكل تلك القوة المادية التى تناوىء الروح وسلطانها لكى لايحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأى ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعاً إذا تجردت مما يحول دون انبعاثها فى العالم ولم يقف عائق فى سبيلها فلم تبطىء فى سيرها !

وكما أن حرية القلم هى وحى هذه القوى العليا فان الطغيان منشؤه أخس غرائز الانسان وأكثرها أنانية وانحطاطاً . فتش عن الطغاة فى التاريخ واستمع الى كل مايتشدقون به من الاقاويل والدعاوى وما يزعمونه من حبهم الخير لبنى الانسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ، تجدهم دائماً ينتهون الى هذه النتيجة : انما نطغى ببنى الانسان لانهم من غير طغياننا يضلون . هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هى الكمينة أبداً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره . وهي عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التى يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا ، والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا ، والطاغية يرى المزيد فى انتشار العلم ضراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم أو يضلوا ، والطاغية يعلم الناس كيف يفكرون وكيف يتكلمون فان هم خالفوا تعاليمه ضلوا ، والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فان لم يصادرها ضلوا ، والطاغية

يستمد الوحي في هذا كله من أحقر شهوات الأنانية التي يفرضها على الناس ويريد منهم أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فان لم يؤمنوا ولم يصدقوا حقت عليهم كلمة العذاب ولهم سوء الدار

هذا الضلال الذي يزعم الطاغية أنه يريد انقاذ الانسانية منه ، وهو انما يريد بها فيه لشهواته وأنانيته ، قد تتوه به الانسانية زمناً يجثم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام ، فيمد للباغي في أسباب بغيه وهو ناشب في قلب الانسانية أظافره ما كثف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرق هذا الظلام شعاع من نور الحق . وللطغاة في تكثيف الظلام الذي ينشرون حولهم أساليب عجب . فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء أضدادها ليسخروا من الناس وليزيدوهم ظلماً . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء ، وكل الغاية التي تكلف هاته الطائفة بها إنما هي نشر الترهات وترويج الأباطيل ومحاربة العلم الصحيح بدعوى أنه السحر أو الكفر أو ماشاء لهم خيالهم المجرم . ويطلقون على طائفة اسم الكتاب ، وما هم بكتاب وانما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافا لسادتهم وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة الى الحق والى الحرية . هؤلاء ليسوا كتاباوانما هم كالكلاب تبصبص بذنبها لمن يلقى اليها بطعام أوبعظمة من العظام ، وتنبح من يطلقها عليه صاحبها لنبحه . وهؤلاء لن يكونوا كتابا ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أى اسم يتصل به ، لأن الكاتب تصدر عباراته عن قلبه وعن ايمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتابا يخلقون ما شاءوا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء اضدادها ، وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام الذي يعيشون ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة . فاذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعا من النور يبدد منه فله الويل وله النكال وله عذاب السعير

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التي يخلقها الطاغية ليعيش فيها ، أنك ترى كل الوان التكريم والاعزاز في عهده تذهب الى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء والكتاب ومن اليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن يناهم إكرام الجماعة في حياتهم أن تمتد كرامتهم الى ما بعد موتهم . أما هؤلاء فآخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم . في ذلك اليوم ينهال التراب على صحيفتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لذويهم من بعدهم ألا يذكرهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس لهذه الحجة ماينقض حرفا منها

واذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فان المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون في عصور الطغيان هم على الانسانية بلاء دائم وشر مستطير ، يفسدون الآداب والاخلاق ويعلمون الناس الكذب والنفاق وينزلون بأدب الكتابة الى أحط درجاته . وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه وان شاب الاعزاز احتقار ، ثم هم لن ينزل بهم حيف أو ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والادب واللغة أى

أذى . بل انك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الاكبار من بطانة الطاغية لانهم يعتقدون فى الزلفى اليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق

على أن الظلم وان تكاثف ، والمظالم وإن اشتدت ، والطاغية وإن استبد ، كل ذلك كان دائماً من أثره أن أثار شرارة الحرية والحق فهتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما تتراكم السحب حتى تحجب الشمس وتبعث على الأرض من الظلمة ما تنقبض له النفس ثم اذا المطر يستنفد السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ماتلبث هذه الظلم المتكاثفة فى جو الطغيان حتى تبعث الى نفس ملهمة كلمة الحق ترتفع فى صيحة قوية خالصة . فاذا الظلم تضطرب قوائمه واذا الطاغية يكفهر وجهه وإذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقا على صاحب الصوت وعلى أنفسهم . ثم اذا الصوت يعلو ويعلو ويرتفع ويرتفع . واذا القلوب التى وجلت من قبل رعباً وخشية تتفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستبشرة . ثم اذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة . ثم اذا النور نور الحرية والحق يعم الارجاء . واذا الظلم والظالمون والطغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحى القيوم

فى العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم . ليكن نصير الحرية والحق خطيباً أو كاتباً أو محدثاً . وليكن عالماً أو أديباً أو داعية دينياً . فهو يرسل بصيحته الضياء الى النفوس المشتاقة الى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة تنبعث حتى يتنبه الطغاة الى مصدرها ويقدرون خطرها . وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كى يخمد صوته ولا يمتد الى ظلماتهم التى خلقوا ضياؤه . لكنهم لم يستطيعوا فى حقب التاريخ جميعاً أن يخفتوا هذا الصوت وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى فى روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والارهاب التى كان ينشرها حكام ذلك العصر ، ويعلى فى الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق . وكان الحكم فى روسيا قائماً على الاستبداد المطلق . مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد الى تولستوى ولا اجترأت على أن تغض منه . لان ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى من سلطان كل سلطان ، ولان الظلم الذى يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعانى يزيدها فى النفوس قوة وللظالمين مقتاً واحتقاراً

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الامثال . وأرباب الاقلام الذين اضطهدوا فى عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الاسباب فى ارتفاع كلمتهم وذيوع صوتهم ومحبتهم وحسن استماع الناس لهم وشديد ايمانهم بآرائهم . وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عذبوا فى سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم ، فاذا جاءت الى الاذهان أسماء الآخرين يوماً جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة ، ذلك بأن الذين جاهدوا لخير الانسانية قد نسوا أنفسهم فى الانسانية فأحلتهم الانسانية مكان الكرامة والاعزاز من قلبها

التسامح

بقلم الاستاذ أنطون بك الجميل

أى كتاباتك أحب اليك ؟

لا أجيب بما قاله الشاعر الفرنسى : « إن خير اشعارى ما تزال فى خاطرى لم أنظمها الى الآن »

ولا أقول ما قالته فاطمة بنت الخرشب — وهى احدى منجبات العرب — حينما سئلت : « أى بنيك أفضل ؟ » فاجابت : « الربيع . بل عمارة . بل انس . » ثم عادت فقالت : « ثكلتهم جميعاً ان كنت أدرى أيهم أفضل ! »

لا أجيب بشىء من ذلك ، فان فى ذلك بعض الادعاء ، وان كان فيه نصيب كبير من الحقيقة . ولكنى لا أكتم أنى فى حيرة من أمرى لتعيين ما أعده أحسن ما كتبت . وقد أعرب لى كثيرون من الزملاء — الذين القى اليهم محرر « الهلال » بمثل هذا السؤال الذى القى به الى — عن مثل هذه الحيرة . فانه يصعب على الكاتب أن يتخير أحب كتاباته الى نفسه وهى كلها من بنات افكاره . وتزداد هذه الصعوبة اذا كان الكاتب قد قضى مدة غير يسيرة فى التحبير ، وكانت كتابته مشتتة فى الصحف والمجلات . فليس فى مكنته أن يجمعها ويراجعها فى عرض عام ليفاضل بينها فيعلن أيها أحب الى قلبه

لذلك رأيت أن أخرج من حيرتى هذه باعتمادى على التوفيق والصدفة . فممدت الى خزانة حوت الكثير من كتاباتى القديمة وأخذت بعض أوراق منها بلا فرز ولا تخير . فكانت نسخة من خطاب عن « التسامح » ألقيته منذ عدة سنوات فى الاسكندرية ، وتفضلت يومئذ مجلة « الهلال » بنشره وبطبع مائة نسخة منه على حدة . فقلت : « هذا الذى أفضل ! » ولا أدرى اهو الربيع ، أم عمارة ، أم انس ؟ وعلى كل فالتسامح فضيلة نحتاج اليها فى كل زمان ومكان

وهذا هو الخطاب ملخصا ليتسق والنطاق المسموح به فى هذه المجموعة :

☆☆☆

. . . . للتسامح أسماء شتى ومترادفات عديدة فى نفس لفظها بيان واف لحقيقة مدلولها وتعريف لما تنطوى عليه من المعانى : فهو التساهل من السهل ضد الوعر أو الصعب ، وهو الملاينة من اللين

ضد الصلابة . وهو المياسرة من اليسر ضد العسر . وهو التسامح من السماحة . وهو المصانعة والمهوادة والرفق والاناة والاغضاء . ففي جميع هذه الالفاظ بالنسبة الى الغير معنى عدم التشديد في المعاملة والحكم . وبالنسبة الى المرء نفسه — على ماذكر علماء النفس عند العرب — معنى كظم الغيظ والاحتمال لما لا يراد . أو بعبارة أخرى التسامح هو تلك الفضيلة الاجتماعية التي تجعلنا نحتمل ونحترم عقائد الغير وآراءهم

ومن المعروف أن الناس ليسوا على رأى واحد ولا على عقيدة واحدة : فلكل منهم طريقة خاصة به في النظر الى الامور وتصور الاشياء والحكم عليها ، بل إن ما يرضى الواحد قد يسوء الآخر وما يستقبح اليوم قد يستملح غداً ، وما يحب هنا قد يكره هناك . قال الامام علي : « إن معروف زماننا هذا منكر زمان مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت » . وقال لابرويير La Bruyére الكاتب الاخلاقي الشهير : « ما يعد حقيقة امام جبال البيرنه يعد خطأ وراءها » فلا يحق اذاً لاحد في معظم الاحوال أن يدعي احتكار الحقيقة وادراك كنه الامور دون سواه

فما دامت الحال كذلك أصبح التساهل أمراً واجباً . فقد يكون للواحد منا آراء دينية او فلسفية أو سياسية أعز على قلبه من كل عزيز بل قد يضحي في سبيلها بماله وحياته . فله أن يطالب بحرية الدفاع عنها والاحتجاج على كل من يمتهنها . وما دام له التمتع بهذا الحق فليس له أن يأباه على الغير

فاذا ماطلبنا من الغير تسامحاً تحتم علينا أن نكون متسامحين : سنة العدل والانصاف بين الناس . ولا يحق لنا أن نلاقي غير الشدة اذا كنا متشددين

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

ولا يقضي التسامح باحترام آراء الغير فقط ، بل يوجب غض الطرف عن هفواتهم والاغضاء عن سيئاتهم وعيوبهم

ذلك ان الانسان مجبول من طينة النقص والضعف . فاني له أن يدرك الكمال المطلق أو يبلغ المثال الاعلى من السجايا والطباع « من ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟ » مهما كبح من جماح شهواته وشدد في القبض على عنان أهوائه ؟ فلو رجع كل منا الى نفسه وناقشها الحساب الدقيق لوجد ذاته أحوج الناس الى التساهل

ومع ذلك ومع وفرة ما رأينا للتساهل من الاسماء فما أقل المتساهلين ! ومع كثرة الادعاء بالتسامح ، ما أندر المتسامحين الحقيقيين ! كل ينادي بالتساهل ، وكل ينشد التسامح فيكلف الغير هذا الخلق ولا يكلف نفسه التحلي به

أتطلب صاحباً لاعيب فيه وأنت لكل ما تهوى ركوب

واذا أنعمنا النظر في حالة البشر من حيث وجدوا ليعيشوا مجتمعين متآلفين ، لا منفردين متقاطعين ، نرى أن التسامح أشد الفضائل لزوماً وأوفرها فائدة ، بل هو شرط الاجتماع وأس الاتحاد

وقوام التضامن ودعامة الوفاق والسلام بين الافراد وبين الجماعات : فلا تحيا جمعية بلا تساهل ، ولا تعيش أسرة بلا تساهل ، ولا تدوم علاقة بين فردين اثنين فقط — ولو كانا أخوين — بلا تساهل . واذا نظر كل منا الى علاقته بجمعيته أو بأسرته أو بصديقه أو اخيه ، يرى ان هذه العلاقة ما نشأت ولا ثبتت إلا بالتسامح المتبادل . ولو زالت روح التسامح من بين الناس تقوض ركن الاجتماع وعفت معالم العمران وضاع معنى التضامن والائتلاف ، فعاش البشر أفراداً متقاربين جسما متباعدين نفسا لا تقوم لهم مصلحة مشتركة كانت او مستقلة . فبالتساهل قيام المصالح الفردية كالمصالح العامة . فكلما نمت روح التسامح فى صدر الانسان زاد هناؤه وصفاؤه « فالرفق يمن والاناة سعادة » وكلما سادت هـذه الروح فى بلاد أو طائفة او جمعية او اسرة ، توافرت فيها اسباب الرقى والفلاح واتسمت خطاها الى ادراك غاياتها سياسية كانت أو اجتماعية ، ادبية او مادية

بل يا بعد ما يكون ادراك هذه الغايات بغير تسامح ! واذا ادرك الانسان ما يريد بالتشديد فانما ذلك الى اجل وسرعان ما يبوء بالفشل

كان الاضطهاد نصيب من يخالف المجموع فى عقيدته. وأى عقيدة لاقت ما لاقته النصرانية من المقاومة فلم يزدها ذلك الا نمواً ورسوخاً ! حتى كان الشيوخ والعذارى يسيرون الى العذاب مؤثرين الموت على جحد عقيدتهم . بل ربما كان الاضطهاد من أعظم عوامل انتشار الاديان والافكار . وعدم الفائدة من الاضطهاد ولد التساهل الدينى الذى لخصه أمير الشعراء بقوله :

الدين لله ما شاء الاله هـدى لكل نفس هوى فى الدين يعنيها

وفى حقيقة الامر ليس من إله أو انسان عاقل يرضى بانقياد أحد له انقياداً قهرياً قائماً على الاكراه

كان السيد المسيح إمام المتساهلين ونبراس المتسامحين ، فنهى عن كل عنف وشدة عامداً فى تعاليمه الى الارشاد بالاقناع والاستمالة بالبرهان . وعنه أخذ العلماء والفلاسفة أسمى مبادىء الرفق والتسامح : « من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر ! »

يقول الافرنج فى أمثالهم : « بدرهم عسل تمسك من الذباب اكثر مما تمسكه بقنطار خل » وقد دل الاستقراء ودلت حوادث التاريخ ، كما تدل اصول العلم البسيكولوجى على ان ما لا يدرك بالمشاهدة قد يدرك باللاينة

تعرفون حكاية الريح والشمس وقد تراهنتا على أيهما تستطيع نزع الرداء عن كتف رجل كان مسافراً فى الجبل : هبت الريح عاصفة هوجاء ، زمهرت وزمجرت ، وتسربت فى طيات الرداء لتخلعه عن الرجل ، فما زاد الرجل الا تمسكا بردائه حرصاً عليه ووقاية لنفسه ، حتى عجزت الريح عن مطلبها وذهب مجهودها فى ادراجها . فقالت لها الشمس : « حسبك عناء ودعينى الآن أفعل ! » سكنت الريح وأرسلت الشمس أشعتها لطيفة منعشة . فأمن الرجل شر الهواء وسرى الدفء فى جسمه

فعمد الى ردائه وخلعه عنه بيده . فقالت الشمس للريح : « ها قد أدركت باللين مالم تدركيه بالعنف »

أجل قد يدرك بالرفق ما لايدرك بالشدة . فالماء على لينه يقطع الحجر الصلد ، ولكن ما لايدرك بالاقناع هيهات أن يدرك بالقوة . فالقوة قد تمكن صاحبها من الاجساد ولكن أنى لها ان تمكنه من النفوس ؟ والداء الكامن فى العقول لاتستأصله القوة وقد يستأصله اللين . فالاوهام فى الرءوس كالمسامير : كلما ضربت عليها بعنف زدتها رسوخاً فى موضعها . واذا شئت نزعها لا بد من معالجتها برفق حتى تتمكن من رءوسها فتجتذبها اليك وتقتلعها

كان معاوية مؤسس الدولة الاموية يقول : « عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة ، ولمن يطلبه بخرق وهو يقدر عليه برفق »

وقد كان معاوية هذا من أقدر الناس على ادراك أغراضه وقضاء حاجاته بالملاينة والمياسرة حتى استتب له أمر الخلافة والدولة بعد أن كثر منازعوه

ومن حكاياته فى هذا الباب انه كان لعبد الله بن الزبير أرض وله عبيد يعملون فيها ، والى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون . فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله ، فكتب هذا كتابا الى معاوية يقول فيه : « أما بعد يامعاوية فان عبيدك قد دخلوا فى أرضى فانههم عن ذلك والا كان لى ولك شأن والسلام » فلما وقف معاوية على كتاب ابن الزبير . وقرأه دفعه الى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له معاوية : « ماترى ؟ » فقال : « أرى ان تبعث اليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه » فقال معاوية : « بل غير ذلك خير منه » ثم أخذ ورقة كتب فيها جواب كتاب عبد الله يقول فيه : « أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى الرسول ، وساءنى ما ساءه والدنيا بأسرها هينة فى جنب رضاه . تزلت لك عن أرضى فاضفها الى أرضك بما فيها من العبيد والاموال ، والسلام » فلما وقف عبد الله ابن الزبير على كتاب معاوية كتب اليه : « قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل . والسلام » فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله قرأه ودفع به الى ابنه يزيد . فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له ابوه : « يا بنى من عفا ساد ، ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال اليه القلوب . فاذا ابتليت بشىء من هذه الادواء فداوه بمثل هذا الدواء »

أما التسامح الفكرى فلنا عليه مثال جميل فى حكاية ملك الفرس سابور بن أزدشير ، وكان قد ظهر على عهده مانى الزنديق ودعا الناس الى مذهبه . فلما قبض عليه سابور أشار عليه نصحاء دولته بقتله فقال : « ان قتلته من غير أن أقطعه بالحجة قال الناس بقوله . ويقولون : ملك جبار قتل زاهداً . ولكنى اناظره بالحجة فاذا غلبته قتلته » وهكذا فعل

أدع لكم أيها الاخوان النظر فيما أعقبه تساهل معاوية من حمل أحد العصاة على الاقرار له بالخلافة وفيما انتجه تسامح سابور من القضاء على الزندقة فى ايامه . قابلوا بين هذه النتيجة التى أدركها هذا وذاك وما كان قد حصل من فتنة ونشر مستطير لولا تسامحهما . . .

... أيها الاخوان ! قد أطلت التبيين والارشاد ، ومع ذلك لو اقتصرت على ماتقدم قد يحمل كلامى على غير محمله فأرمى بما أنا منه براء . فلا بد لى من بعض استدرا كات تحل الامور محلها واحياً أن تبدأوا بى باظهار تسامحكم وتساهلكم

إن تساهل الانسان مع الغير لا يفيد بتاتاً تساهله مع نفسه وترك الحبل لها على الغارب تتطوح فى اهوائها : ذلك مذهب الاباحيين وليس من التساهل فى شىء ! فلا يكون التساهل حقيقياً إلا اذا شددنا على أنفسنا بما قد نتسامح به مع الغير : فاذا عذرت رفيقى لتقصيره فى خدمة قومه وبلاده مثلا يجب ألا أعرف لنفسى عذراً فى هذا التقصير . بل إن اشد الناس تساهلا مع الغير كانوا أكثر الناس تشديداً على أنفسهم فلم يغتفروا لها زلة

ولا يعنى اللين والتساهل المحاباة والخداع :

كالصل يظهر لينا عند ملمسه حتى يصادف فى الاعضاء تمكينا

فان الصراحة أن يعتقد الانسان كل مايقول لا أن يقول كل ما يعتقد

وقد ضل أيضا من توهم أن تجاوز المرء عن شؤونه يفيد اغضاءه عن حقوق الغير : فحقوق الغير مقدسة لا يجوز التسامح بها . فلكل منا ، إذا شاء ، أن يغضى عن بعض حقوقه ، ولكن ليس له أبداً أن يتساهل بحقوق صديقه أو عشيرته أو بلاده . قال رجل للمبرد : « أسمعنى رجل فى نفسى سوءاً فاحتملته ، وأسمعنى فيك فاحتملته » فقال المبرد : « احتمالك فى نفسك حلم ، واحتمالك فى صديقك غدر » ونزيد احتمالك فى بلادك خيانة شنعاء لا تغتفر . فالتسامح اذن حيث يجب التشديد مضر كالعنف حيث يجب اللين :

ووضع الندى فى موضع السيف فى العلى مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقد قال فارس بنى عبس لعبلة :

اثنى على بما علمت فانى سمح مخالقتى إذا لم أظلم

واذا ظلمت فان حلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم

فالحلم لا ينفى البسالة . والتسامح لا ينفى المناضلة والجهاد دون المبدأ : فمن الحماقة أن نتصور التسامح عنوان الضعف ودليل الجبن والاحجام ، بل هو فضيلة الانفس القوية الكبيرة . فتراه أشد نمواً فى صدور المتوقدين حماسة لمبدأهم منه فى صدور الفاترين : الرجل القوى فى عقيدته المتمكن من فكرته الثابت فى خطته ، أوفر تساهلا من الرجل الضعيف الرأى المتزعزع الفكر الذى يحاول أن يستر ضعفه وتقلبه بتعصب أعمى وتشديد بلا معنى . يقول الفلاسفة إن ما جاوز حداً معلوما لا يكون فضيلة : فللفضائل حد من قصر عنه لا يكون فاضلا ، وكذلك من تعداه . فالافراط كالتفريط كلاهما غير محمود . والفضيلة وسط بين رذيلتين . ولذلك قالوا : « خير الامور الوسط وحب التناهي غلط » فالشجاعة فضيلة بين رذيلتى الجبن والتهور . والكرم فضيلة بين البخل والتبذير .

والحياء وسط بين القحة والمهانة . والوقار سجية بين الهزل والكبر

وكذلك التسامح . فهو اذا كان ينفى الصلابة والمشاكسة والمشادة لا ينفى الضعف والاستسلام والتراخى . والا فان ما نسميه تسامحا وتساهلا وأناة وهوادة وملاينة . ينقلب رياء وملقا ونفاقا وتدليسا ومداهنة . وبالاختصار تصير تلك الفضيلة الحميدة التى أطريناها رذيلة ذميمة يجب أن نشجبها . ومتى وصلت المجاملة بالانسان الى حد الخنوع والاستكانة فانها تعدل خيانته لنفسه

وأعيذكم من هذه المساهلة الدنيئة !

نحن وضعنا نصب أعيننا غاية شريفة نسعى اليها بكل قوانا دون وهن فى العزيمة ولا فتور فى الارادة . فاذا مادعوتكم الى التسامح لم ادعكم الى التراخى فى الذودعن تلك الغاية الوطنية والعقيدة القومية . بل أنا ما دعوتكم الا الى التسامح المشتق من « سمح الرمح أى ثقفه حتى لان » وليان الرمح لايعنى ضعفه بل تقويته . فيلوى وينثنى دون أن يقصف أو يكسر

افتخرت السنديانة يوماً بصلابتها ففاخرتها القصبة باستلانتها . هبت العاصفة فكسرت السنديانة أما القصبة فالتوت ولم تكسر . ولما سكنت العاصفة كانت السنديانة ملقاة على الحضيض . وانتصبت القصبة رافعة رأسها

هكذا يجب أن نتحنى امام عواصف الزمان . واذا ما لقينا عقبة فى سبيلنا هل نحن فاعلون « كناطح صخرة يوما ليوهنها » ؟ لا أيها الاخوان . غير ذلك خير منه فى الاحوال التى نحن فيها

بل إن لنا أسوة بالنهر المتدفق من الجبل : هو ايضاً يسعى الى غاية ؟ غايته الانضمام الى البحر معشوقه . فيسير اليه بلا ملل . تارة هادئاً مترقرقا . وتارة مرغيا متدفقا . ولكنه يسير دائما الى غرضه تحت جنح الظلام أو فى اضواء النهار . انظروا اليه وقد قامت فى وجهه ربوة . كيف يتجمع بحيرة فيقوى على تسلق الربوة والانحدار من أعلاها شلالا فخما . او كيف يدور حولها فيجعل منعطفه سواراً لها . راقبوه ايضا وقدلقى فى مجراه ثغرة فغار فيها . . تخيل الينا هنيهة ان الارض قد التهمته وذهبت به قبل ان يدرك غايته . ولكن اصغوا : ان هديره الخفى ينبىء بوجوده وبدوام سيره حتى يخرج هناك فى السهل ، وقد مدته الجداول تحت الارض فزادت حجمه . ينبسط الآن على الشاطىء مرتاحا مطمئنا وتتدحرج أمواهه الى البحر . فيلاقيه البحر بأمواجه ، حتى تتسرب تلك فى طيات هذه ، ويتلاشى النهر وقد ادرك غايته فى صدر البحر . . !

هذا هو اللين الذى نريدكم عليه يا أنصار الاستقلال : التووا ولا تقصفوا . انثنوا ولا تكسروا . ذاكرين أن ألين النفوس أصلبها مكسراً . فاذا أردنا منكم لينا فمن غير ضعف . واذا دعت الحالة الى الشدة فمن غير عنف . نحن فى عصر سادت فيه العصبيات القومية واستيقظت النعرات الوطنية . فاعتصبوا دون ان تتعصبوا ! واشتدوا دون أن تشددوا ! وتسامحوا دون ان تقعدوا . أما فى المبدأ فلا تلينوا « حتى يلين لضرس الماضغ الحجر ! » . .

الحرب العظمى

بقلم الاستاذ احمد محرم

حماةَ الوغى أين السلام الموطَّدُ ؟ وأين الوصايا ، والذمام المؤكَّدُ ؟
عهودٌ كتضليل الاماني ، وراءها وعود ، كما طار الهباء المبدّدُ
اطالت عناء السيف والسيف مفمد وطاحت به في الرَّوْع ، وهو مجرد
كأن الوغى ملهى ، كأن الردى هوى كأنّ الدَّمَ الجارى شرابٌ مبرَّد
كأن انين الهالكين مردَّدًا أهازيج في أسماعكم تترَدَّد
كأنَّ بني حوَّاء تزجى جموعهم إلى حَوْمَةِ الحرب ، النَّمام المطرَّد
كأنَّ كتابَ الله لغوٌ ، كأنكمْ على النَّاس ، أربابٌ تطاع وتعبد
ملأتم فجاجَ الأرض نارًا ، فلم تبت من الخوْف إلاَّ وهى بالناس ميَّد
لئن كانَ متن الجوِّ بالحتفِ موقراً فانَّ عبابَ البحر بالهوْل مزبد
أبيتم ، فما يُلقَى على الارض مهبطٌ لناجٍ ، ولا يلفى إلى النَّجْم مصعد
أمانًا حُماة السِّلْم لا تمسحوا الدُّنى ولا تذبحوا عمرانها ، وهو يولد
عبثتم بآمال الشُّعوب ، فأبغضتْ من العيشِ ما كانت تحبُّ وتحمد
لئن ضجَّت الهُلاَّك من نكد الرَّدَى لعيشُ الالى لم يطْعموا الهُلك انكد
فواجع هالَ الأمس واليومَ وقعها وريع لها من قبل أن يولد الغد
تود الدَّرارى الطالعات لو انّها محجَّبةٌ ممَّا تراعى وتشهد
كأنَّ نجومَ السعد غضبى على الدُّنى إذا ضمَّها يومٌ من النحس اسْوَد
كأنَّ الدنى حمرًا وسودًا من الوغى جهنم تحمى للعصاة وتوقد
كأنَّ الألى صبوا على أهلها الرَّدى زبانيةٌ ، منهم حديدٌ وجلمد

كأنَّ الرَّدى مرخي العنانين موغلاً ... اخو جنَّةٍ ، او راحلٌ يتزوَّد
وقائع ، لم يشهد لها الدَّهر مرَّةً ... شبائه تروى ، او نظائرَ تعهد
لئن كان هزلاً ما رأى الناس قبلها ... فتلك التي لا هزل فيها ولا دد

* * *

تفجرت النيران من كل قاذف ... بأرجائها واستجمع الدم يجمد
وطارت بها الارواح فوضى يضمُّها ... إلى الله (عزرائيل) والله يَرْصد
قذائف مِلء الجو ترمي حثاثها ... من الحتف ذي الأهوال رام مسدد
إذا ما ألمتْ بالحصون تطايرتْ ... ذراها العلى ، واندك منها الموطَّد
إذا جحدت تدْمير أُخْرى تهابها ... أتاها من التدْمير ما ليس يُجحد
إذا داهمتْها ، لم تفدها ضراعةً ... ولو خرّ عانيها على الارض يسجد
تحاول أسباب الفرار ، لعلها ... تغاث إذا طارت سراعاً وتُنجد
تَودُّ ارتياعاً لو حوتها حمامةٌ ... وغيبها تحت الجناحين هُدهد
وقد ملك الآفاق نسرٌ مُحلقٌ ... يطوف بأكناف السهى يتصيد

* * *

وأُخرَى[1] إذا زاغ الردى عن سبيله ... وطاحَ به ليلٌ من الشك أربد
أضاءت له سودَ الغياهب ، وانبرتْ ... على البعد ، تهديه السبيل ، وترشد
إذا ما تردَّتْ بالسلاحِ كتيبةٌ ... تكشف من سوْآتها المتعمد
وان أجمعت أُخرى صدوداً عن الوغى ... أتتْها خيالات الوغى تتودد
تنبهُ من لوعاتها ، وهي هجد ... وتبعث من روعاتها ، وهي هُمَّدُ
تود من السُّهْدِ المبرِّح أنها ... حواها من المأثورة البيضِ مرقد
وتشتاق عانيها من الامنِ نهلةً ... ولو أن أطراف الأسنةِ مورِد

---

(١) الانوار الكشافة

اطو خريطتها !

اوربا وباريز يوم نشوب الحرب العظمى

بقلم الاستاذ سليم عبد الأحد

درستها منذ صباى فعرفت حدودها من البحر إلى البحر ، ومن الشرق إلى الغرب . وكنت أتصورها دائماً رمزاً الى الجمال فلا يتمثل لى فى حدائقها غير البنفسج ، ولا فى فضائهـا غير البلابل . وقد أصبحت اليوم « بركاناً » هائلا يتقيأ حمما تذهب بجمال الطبيعة الفتانة

كذلك شاء الانسان . يهدم فى ساعة واحدة ما بناه آباؤه فى مئات من الاعوام . يحمل سيفاً بيمينه ومعولا بيساره يقطع بذلك ويضرب بهذا . يقول حسناً أن ابنى ، وأحسن منه ان اهدم

بهذا سوف يشهد التاريخ . ان ابناء المائة العشرين لم يبقوا شيئاً لابناء العصور المظلمة ، وان اله الحرب وضع احدى قدميه على ضفاف الرين والاخرى على شواطىء الفرات ثم أخذ يعمل معوله فى قصر السلام . هذه « ريمس » و « لوفان » و « لياج » قد ضاعت مواقعها على الخريطة . يقف السائح على اطلالها ويسأل أين كانت مرابع مدنيتها ، ويلتمس العصفور مكاناً يبنى فيه عشه ، ونسور الجو تحوم فوق قبور كانت بالامس قصوراً

ماعهدى باوربا انها قبر لمدنية القرن العشرين . قد هدم المدفع قصورها وحصد السيف رقاب بنيها ، فبئست مدنية النار والحديد . قد أصبحت مطمع الطامعين . كذلك الطير الذهبى اللون فانه مطمح أنظار الصياد

سلمت قصورك يابلاد الجمال . تحميك أسوار من قلوب ومن حديد . فكيف تطوى خريطتك من الوجود ؟ بل بئس ما أنت فيه . أين جمالك الساحر وحسنك الفتان ؟ أنت الآن سكرى برائحة الدماء . غداً تستيقظين من حلمك الرائع فتجدين حولك انقاضاً بالية وطلولا دارسة

بل غداً يرسمونك من جديد ، يزرعون اشلاء بنيك فى تربتك الصالحة فينبعث منهـم جيل احرص على السلم ، وتنسى الثكلى أولادها الراحلين . يرجع العصفور إلى عشه ، والبلبل إلى ايكه ، والرين إلى صفائه . ترسب اشلاء القتلى فى قعر الانهار ، ويصنع الحوت وليمة تذكرها أجياله من بعده ، وينسى الاحداث جغرافية أوربا ، لان السيف قد مزق خريطتها القديمة ورسم لها خريطة جديدة ،

وسينقش التاريخ على صروح الرين : « هنا آثار مدنية غابرة » وعلى ضفاف الدانوب : « هنا كانت مملكة الرجل المريض » (١) هو ذا الا كفان معدة . في أوربا اليوم مليونا أرملة وثكلى . قد اتشحن بالسواد ، ولكن وراء دموعهن عهد فرح وسلام لان فلذات اكبادهن انما دفنوا في قبور المجد ، وذكرهم على السنة الاحياء . وستشاد على بقاياهم مملكة السلام الجديدة

هنيئاً لهم فقد حرروا العالم من نير ثقيل . سينقش التاريخ ذكرهم بأحرف من ذهب ويجعل أعمالهم اقاصيص تلقيها المرضعات على الاطفال . يتغنين بها لينام الطفل ويحلم أحلامه المبهجة

سلام على خريطة مزقها السيف . سلام على قصاصة سوف تضم الى سجلات الخلود

فارقت باريز منذ ثلاث سنوات ثم عدت اليها فوجدتها اجد شباباً وأكثر نشاطاً . كذلك النسر في شيخوخته يتجدد صباه . وهل تعرف باريز هرما وهل يعبث الزمان بجمالها ؟

سل مافيها من دور وقصور . ألم تضم بين جدرانها رهطا من حملة التيجان الذين كانت الارض تميد تحت أقدامهم ؟ لقد انطوى عهدهم ولباريز كل يوم عهود

ويح باريز مهبط النور والجمال ــ مدينة السحر والالحاد ــ تزينها الكنائس المزخرفة مصب الذهب واللجين ــ يموت أولادها جياعا . . متى كانت باريز غير نسخة من الجحيم ؟

اذا عطشت سقاها « السين » واذا جاعت ألقمها بنوها النضار . لها معدة تهضم التبر . هي بالوعة قد رسبت فيها أقذار بابل ونينوى . . ويح جمالها الشنيع ، وتقواها الآثمة ، وأغنياؤها المعوزين

قالوا ان لباريز نظيرات في الجمال ، كذبوا ، ماللسماء شمسان ، ولا لليل قمران

أزل باريز عن الخريطة . ما الذى يبقى من العالم غير اطلال بالية ؟

أمح اسمها من بطون الاسفار ؟ ما الذى يبقى من شعر « هوفو » وغزل « لامارتين » ؟

تأملتها في ظلمتها الدامسة وقد ساد عليها السكوت وهجعت في اباراجها النسور . رأيت السين ينساب بين شاهقاتها وقد خفت خريره وطفئت المصابيح على ضفتيه ، لان باريز الجميلة مثقلة باعباء الهجوم . . متى كانت باريز مدينة السكوت ؟

اتصورها عابسة مظلمة ولم أعتد أن أرى على ثغرها غير الابتسام ولا شهدت في بنيها غير السرور . فما أطول ليلها الدامس ! انه ابدية مملة . والابدية تفغر فاها وتتثاءب لتبلع أولادها البائسين

أتزولين وتبقى انقاض الهمجية ؟ أتندثرين وتبقى أطلال التوحش ؟ ماالذى يبقى من العالم اذا أزالوا اسمك عن الخريطة ؟ وعلى من بعدك تنشر الشمس التبر من أشعتها الذهبية ؟

ليس ما يلهيني عن ذكرك الطيب . كل تذكاراتك طيب تطيب به النفوس . لتكن كل أيامك اعيادا ياباريز . ليغز الغريب الناقم عليك ولينتشر في ربوعك السلام . ان كنت اليوم صامتة فغداً تتكلمين . غداً يراك العالم اكمل بهاء وأتم اشراقا

---

(١) لقب النمسا قبل الحرب

فرعونيون وعرب

بقلم الاستاذ احمد حسن الزيات

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حربا من غير جند ! !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل فى الدجاجة والبيضة أيتهما أصل الاخرى : فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟ !

نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمة النفوس وأعنة الاهواء ، يقول لها كونى فرعونية فتكون ! أو كونى عربية فتكون ! ثم اشتهر بالرأى الفرعونى اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام . فبسطوه فى المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه فى المحادثات ، حتى خال بنو الاعمام فى العراق والشام أن الامر جد ، وان الفكرة عقيدة ، وان ثلاثة من الكتاب أمة . وان مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ! . .

مهلا بنى قومنا لاتعتدوا بشهوة الجدل على الحق . ورويداً بنى عمنا لاتسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ! إن الأصول والانساب عرضة للزمن والطبيعة : تواشج بينها القرون ، وتفعل فيها الاجواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة . فاذا قلنا فلان عربى أو فرنسى أو تركى فانما نعنى بهذه النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب ، كاللغة والادب والأخلاق والهوى والدين . فبديع الزمان عربى وأصله فارسى ، وروسو فرنسى وأصله سويسرى ، والامير فلان تركى وأصله مصرى ، لان كلا من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءا من شعبه ، ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه . . فبأى شىء من هذا يتمارى إخواننا الجدليون وهم لو كشفوا فى انفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام لرأوا الروح العربية تشرق فى قلوبهم دينا ، وتسرى فى دمائهم أدبا ، وتجرى على ألسنتهم لغة ، وتفيض فى عواطفهم كرامة

لانريد أن نحاجهم بما قرره المحدثون من العلماء من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج ينقطع فيه النفس ولا ينقطع به الجدل . . . وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرنا وثلث من التاريخ العربى ، نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال .. وذلك هو ماضى مصر الحى الذى يصيح فى الدم ، ويثور

في الاعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأس شامخ الذرى عزيز الدعائم

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، واعحوا ولو بالفرض هذا الماضى ، ثم انظروا ماذا يبقى فى يد الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الاموات » وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للمجهولات ، وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الارض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضى الابعد الذى تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة تصور بالوانه وتشدو بألحانه وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لاتنتقل الى الاعقاب الا فى نتاج العقول والقرائح ، فهل كشفتم بجانب الهيا كل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفين فنيت روحه مع الآلهة وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ؟

لاتستطيع مصر الاسلامية الا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربى ، لانها لاتجد مدداً لحيويتها ولا سندا لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها الا فى رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ، ولفنها لونه فذلك قانون الطبيعة ولا شأن لمينا ولا ليعرب فيه : لان الفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها فى كل قطر . فاذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة . ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاته (اللون المحلى) وهو شرط لصدق الاسلوب وسلامة الصورة . وقديماً كان لون الادب فى الحجاز غيره فى نجد وفى العراق غيره فى الشام وفى مصر غيره فى الاندلس . دون أن يسبق هذا التغاير دعوة ولا أن يلحق به أثر

انشروا ماضمنت القبور من رفات الفراعين . واستقطروا من الصخور الصلاب اخبار الهالكين . وغالبوا البلى على ما بقى فى يديه من أكفان الماضى الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجبال الوادى وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التى تنفخونها فى مومياء فرعون هى روح عمرو . وأن اللسان الذى تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر . وان القيثار الذى توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرىء القيس . وان آثار العرب المعنوية التى لاتزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذى العالم هى أدعى الى الفخر وأبقى على الدهر

انما تتفاضل الامم بما قدمت للخليقة من خير وتتفاوت الاعمال بما أجدت على الانسان من نفع ، اليس (الخزان) خيراً من الكرنك والازهر أفضل من الاهرام . ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟ — وبعد فان ثقافتنا الحديثة انما تقوم فى روحها على الاسلام والمسيحية . وفى أدبها على الآداب العربية والغربية . وفى علمها على القرائح الاوربية الخالصة . أما ثقافة (البردى) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالاقباط

مقياس الرقي (١)

للاستاذ احمد امين

سألني أديب سوري ، بمناسبة مقال كتبته عنوانه « المسلمون أمس واليوم »

بم تعد أمة أرقى من أمة ، وما العوامل التي نحسبها ونقيس بها الرقي ؟ وفي الامة الواحدة — إذا سئلنا أكانت بالامس خيراً منها اليوم ، أم هي اليوم خير منها أمس . فأي النواحي نرعاها عند النظر ؟ والحق أنها أسئلة في منتهى الصعوبة ، يحار المجيب عنها أي العوامل يحسب وأيها يترك ، وأيها له قيمة كبيرة الأثر وأيها ضعيف الأثر ؟

قد يجيب مجيب اجابة سهلة من طرف اللسان فيقول : « مقياس الرقي في الامم الاخلاق » فأرقى الامم أحسنها خلقاً ، ولكن هذه الاجابة لاتقنع ، فالاخلاق متغيرة ، وكل عصر له أخلاق يتطلبها وواجبات ينشدها ، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجدادنا منها . أصبح واجباً علينا أن نعلم أولادنا في المدارس ، وما كان ذلك واجبا من قبل انما كان تبرعا من الاب . وأصبح واجباً علينا ترقية الوطن من جهات متعددة ، وما كان ذلك واجبا من قبل وان كان واجبا فواجب غامض ليس محدود المعنى ولا معين الاتجاه . وكان آباؤنا يعدون من ارقى الاخلاق في الامة حجاب نسائها وبناء سور متين بين الرجل والمرأة ، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرأة كما يتعلم الرجل ، ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل . فاذا قلنا مقياس الرقي الاخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شيء ولا تدل على شيء

وقوم يقيسون الرقي بالدين وهي كذلك كلمة عامة يختلف مدلولها باختلاف أنظار الناس ، فيضيق عند بعض الناس حتى لايسع إلا الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ويتسع عند بعضهم حتى يشمل كل شيء

وفي الحق أن هناك مناحي للحياة مختلفة متعددة يجب أن ينظر اليها كلها لتقويم الرقي — ففي كل أمة مجموعة من المرافق . يعد كل مرفق منها كالخلية في الجسم الحي : من حكومة وتعليم ولغة ودين وأسرة ونظام اقتصادي ونحو ذلك . كلها تتغير وكلها ترقى أو تنحط . وكلها في حركة مستمرة دائماً اما الى الامام واما الى الخلف . وكلها تتفاعل تفاعلا قويا ، يؤثر قويها في ضعيفها وضعيفها في قويها — وهذا التغير الدائم في كل هذه المرافق هو مقياس الرقي والانحطاط . فان كان تغيراً الى سمو فرقي وان كان تغيراً الى تدهور فانحطاط

---

(١) اخترناها له . . .

وحسبان هذا ليس بالامر اليسير . فقد تتدهور بعض المرافق لاسباب خاصة وتسمو بعض المرافق لاسباب كذلك . ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة فينشأ من ذلك عملية حسابية من أصعب المسائل حلا . والمثل الأعلى للامة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدى عمله خير اداء ويتنقل فى سمو أبدا ، وان يكون سيره ورقيه فى حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية ، لا يطفر عنها ولا يقعد بها — فالامة التى تختار أحسن النظم فى التربية والتعليم ولا تساعدها اللغة على المصطلحات الحديثة لا ترقى فى التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية . والامة التى تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية ثم لا يعينها على ذلك حالة الاسر الاخلاقية وحالة المعاملات بين الافراد ، لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية . والامة التى تسن أرقى أنواع الاصلاحات الاجتماعية ثم لا تعينها الناحية الاقتصادية تصبح اصلاحاتها تسر القارىء ولا تسر الناظر . وهكذا

وهناك دلائل قوية تدل الباحث على رقى الامة وتدهورها وسيرها الى الامام او الخلف . اما بمقارنتها بغيرها من الامم فى نواح معينة أو بمقارنتها بنفسها فى عصرها الحاضر وعصرها السابق . والمقارنة الاولى تدلنا على الدرجة التى تقف عليها الامة فى سلم الرقي العام . والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها : الى فوق أو تحت

من أهم هذه الدلائل تعرف موقف الامة ازاء ما يحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية : هل هذا الجيل أحسن استخداماً لبيئته وما يحيط به ؟ هل استطاع أن يوجد منابع لثروته وسعادته أكثر مما استطاع أسلافه ؟ هل استخدم المنابع القديمة خيراً مما استخدمها آباؤه ؟ هل كان فى حله لما يعرض له من المشاكل الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقاً ؟ لما عرضت هذه المصاعب أو أمثالها لنا ولآبائنا كيف حلوها وكيف حللناها ، ومامنهجهم فى الحل وما منهجنا ؟ ما مقدار تضامن الافراد يومذاك في التغلب عليها ، وما مقدار تضامننا اليوم ؟ لكل أمة مقدار من الثروة ، فهل زادت ؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بثروتها أكثر مما كانت تسعد بها من قبل ؟ هل استخدمت العلم أحسن مما استخدمه آباؤها . فقلت الوفيات وتحسنت صحتها ، وجمل منظرها ، ونظفت عيشتها ، وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والادب ؟ أظن ان هذه الاسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكن الاجابة عليها عسيرة ، وبذلك نستعين على تعيين مقدار الرقى

ومن ناحية أخرى ، ربما عد من أكبر دلائل الرقي فى الامة « تذليل العقبات أمام الكفايات » فخير الامم من أفسحت السبيل أمام افرادها ليرقوا كما يشاءون حسب استعدادهم وجدهم ، فى التعلم ، فى الوظائف ، فى النواحى السياسية والاجتماعية — وقد قطعت الامم المتمدنة فى ذلك خطوات واسعة فازالت احتكار الارستقراطية للمناصب العليا ، وسهلت وسائل التعلم لمن شاء ، واعتمدت فى تقدير الاشخاص على مزاياهم لا على بيتهم — الى درجة كبيرة — وحاربت « المحسوبية » والنزعات الارستقراطية

وقضت على النظام الاقطاعى الذى يميز بين الطبقات ويضع حداً فاصلا بينها لا يمكن تخطيه ، ووضعت النظم الاقتصادية الحديثة ، وفيها يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه ان يصل إلى ما يستطيع من رقى — وان كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية فى ذلك ، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات طويلة يجب ان يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته وبلوغ شأوه

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقى النظرالى ثروة الأمة ومقدار مايصرف منها على « الصالح العام » من مدارس ومصانع ومساجد ومتنزهات وحدائق وماء وانارة ونحو ذلك . ولست أعنى النظر الى كمية ما يصرف فحسب ، ولكن أعنى أيضا كيفية الصرف ، وهل انفق هذا القدر فى احسن السبل وهل هناك وجه آخر خير منه ؟ . كذلك لست أعنى ما ينفق فى ذلك من ميزانية الحكومة فقط ، ولكن أعنى أيضاً مقدار شعور الافراد فى هذا الباب ومقدار مايتبرعون به من أموالهم لهذا الصالح العام ، فليست ثروة الامة مقصورة على ميزانية الحكومة ولكنها تشمل ثروة الافراد « وفى أموالهم حق معلوم » للسائل والمحروم » فالامة التى لا يشعر أغنياؤها بواجب فى أموالهم لفقرائها ، أو يشعرون شعوراً ضعيفاً لا يقوى على استخراج المال من جيوبهم ، أمة منحطة إذا قيست بغيرها من الامم التى كثرت فيها المدارس والاندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها

ومما يتصل بهذا الامر ، النظر فى ميزانية الاسر فى الامة وكيف تنفق ، فامة خير من أمة اذا عرفت أسرها كيف توازن بين دخلها وخرجها ، وكيف تفرق بين الضرورى والكمالى وما ليس بضرورى ولا كمالى ، ولم تسمح لنفسها أن تصرف فى الكمالى حتى تستوفى الضرورى ، ولا فى غير الضرورى والكمالى حتى تستوفى الكمالى ، فذلك — من غير شك — يجعل الاسر أسعد حالا ، وأهدأ بالا ، واكثر استعداداً للرقي ، وهل الامة الا مجموعة من الاسر ؟ وهل رقى الامة الا حاصل جمع رقى الاسر ؟ وكما أن أسرة قد تكون أسعد من أسرة مع أن دخلها أقل وثروتها أضعف ، ولكن عقلها أكبر ، وتصريفها لما لها أدق ، فكذلك الامم ليس خيرها أغناها ، ولكن خيرها من عرفت كيف تستخدم ما لها وأحاطت ماتملك بوسائل اجتماعية ، وكمية كبيرة من الاصلاح تجعل مالها يتضاعف فى القيمة وان لم يتضاعف فى العدد — فكم من أمة لها ثروة كبيرة طبيعية ولكن لم تعرف كيف تستخدمها ولا جزءاً منها ، ولو حلت محلها أمة أخرى لصيرت صحراءها بستاناً وجبالها جناناً ، ولجعلت ترابها ذهباً وأرضها عجباً . ومن أجل هذا لم يخطىء كثيراً من حصر مقياس رقى الامة فى مقدار تغلبها على طبيعة بلادها وتعديل نفسها حسب ما يحيط بها — لانها لا تصل الى ذلك الا بمقدار كبير من العلوم الطبيعية يمكنها من الانتفاع بارضها وجوها ، وبقدر وافر من العلوم الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها ، وبمقدار صالح من النظم السياسية والاجتماعية والاخلاقية يهيىء للافراد سبل الانتفاع بما حولهم ويعدهم خير اعداد للنظر فى مصالحهم

فليتساءل الشرقى فى ضوء هذا : أين هو فى نفسه ، وأين هو فى أمته ، وأين أمته فى العالم ؟

عظيم (١)

بقلم الدكتور طه حسين

كان حازماً إذا قال أو فعل ، وكان حازماً اذا هم أو مضى ، وكان أبياً اذا سيم الضيم ، عصياً اذا دعى الى الخسف ، عزيزاً اذا أريد على الهوان ، جمع الله له قلباً زكياً ، وأنفاً حمياً ، وضميراً نقياً وخلقاً رضياً

ولساناً صيرفياً صارماً كحسام السيف ما مس قطع

ثم رماه بالاحداث والخطوب فلم تلن قناته ، ولا فلت شباته ، ولا صدعت صفاته ، ولا صرفته عما رسم لنفسه من طريق ، ثم رمى به الاحداث والخطوب ، فلم تثبت له . وانما ولت عنه نافرة . وانهزمت أمامه ممعنة فى الفرار . وليست الخطوب التى تعترض عظماء الرجال شراً كلها . وليست الخطوب التى تتاح لعظماء الرجال خيراً كلها . فهذه النعمة السابغة التى يتمها الله على الرجل العظيم نوع من أنواع المحنة وضرب من ضروب الفتنة ، لانها خليقة أن تغريه بالاشر والبطر ، وتزين له الكسل والفتور . وهذه النقمة القائمة التى يمتحن الله بها الرجل العظيم نوع من أنواع المحنة وضرب من ضروب التشجيع ولون من الوان التمحيص ، خليقة أن تعوده احتمال المكروه والصبر للنوائب والتفوق فى مصارعة الاحداث . وقد ابتلى سعد بالنعم السابغة فلم تفسد عليه من امره شيئاً ، وابتلى سعد بالنقم الملحة فلم تفل له حداً ، ولم تضعف له عزماً ، ولم تجعل لليأس الى نفسه العظيمة سبيلا

أجمع المصريون على حبه وإكباره ايان الثورة لانه كان زعيم صفوتهم وقائد خلاصتهم الى مثلها الأعلى من الحرية والكرامة ومن العزة والاستقلال . اليه آوى قاسم حين كتب تحرير المرأة فتنكر له الدهر وأهله ، وبه لاذ محمد عبده واصدقاؤه القليلون الذين كانوا يمثلون فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن آمال مصر ومثلها العليا فى الحياة الكريمة الراقية

وأجمع المصريون على حبه واكباره ايان الثورة لانه كان يقود الشعب كله الى هذا الامل العزيز الذى كان مقصوراً قبل الحرب على الخلاصة والصفوة ثم شاع بعد الحرب فى الناس جميعاً

ثم اختلف المصريون فيه بعد الثورة فسلمت له كثرتهم الضخمة وعددهم الرائع . ونهضت له جماعة منهم تقاومه وتخاصمه ، وتحاوره وتساوره ما وسعتها المقاومة والمخاصمة ، وما أطاقت المحاورة والمساورة . وأغريت به أقوى أمم الارض وأشدها بأساً وبطشا واعظمها حولا وطولا وأوسعها

(١) اخترناها له . وقد نشرت في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٣

سلطانا وملكا . نفته ثم ردته ثم ضاقت به فابعدته ثم عجزت عن اسره فاطلقته . وظل هو طول حياته باسما للنعمة باسما للنقمة لا تدفعه تلك الى أشر ولا بطر ، ولا تضطره هذه الى ضعف ولا خور . وظل طول جهاده ثابتا لخصومه من مواطنيه ساخراً بهذه الكوارث التى كان يسلطها عليه اعداؤه من الاجانب حتى أعيا أولئك وهؤلاء جميعا

واذا أولئك يقبلون عليه ويضعون أيديهم فى يده ويؤمنون له بالزعامة والتقدمة ويتعاونون معه على البر والمعروف . واذا هؤلاء يسعون اليه ويعترفون له بالسلطان على نفس الشعب المصرى وقلبه ويسجلون ان ليس لهم الى ارضاء هذا الشعب سبيل الا أن يرضوا هذا الرجل ، ولا الى الاتفاق مع هذا الشعب سبب إلا أن يتفقوا مع هذا الرجل . واذا هو يقضى الشطر الاخير من حياته العظيمة وقد سلم له اجماع الشعب كله على حبه واكباره لم يشذ منه أحد ولم يند منه انسان ، واذا هو قد قهر عدواً عنيفا وخصما عنيداً . كان ما يزال ثملا بأعظم انتصار عرفه التاريخ فى اعظم حرب عرفها التاريخ

ثم يقضى هذا الرجل العظيم فتبكيه مصر كلها لانها فقدت اعظم ابنائها لا فى عصرها الحديث ولا فى عصورها الوسطى بل منذ فقدت استقلالها فى التاريخ القديم . ويأسى لفقده الانجليز الذين خاصموه وقاوموه وضاقوا به وسلطوا عليه ألوان الكيد وفنون العذاب لانهم فقدوا خصما كريماً قد كان يوشك أن يكون لهم صديقاً حميما ، وأن يجعل لهم من الشعب المصرى صديقاً حميما أيضاً

وكذلك ابتسم الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى ابتسام الدهر عظيما ، وعبس الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى عبوس الدهر عظيما . وكذلك عرف هذا الرجل كيف يكون كريماً فى المسالمة كريما فى المخاصمة كريماً فى الجهاد كريماً فى الهدنة ، وكيف يذوق البغض كأشد ما يكون فلا يفسده البغض ، وكيف يذوق الحب كاحسن ما يكون فلا يبطره الحب ، وكيف ينصرف عن هذه الحياة وقد ملأ قلوب الاحياء ، وكيف تمضى الايام والشهور والاعوام على موته فلا تنقص من مكانه فى القلوب بل تزيده ولا تضعف من سلطانه على النفوس بل تقويه ولا تغرى بذكره النسيان بل تذوده عنه وتجعل شخصه ماثلا دائما أمام الشعب المصرى ، وامام الشعوب الشرقية كلها تلتمس عنده الاسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، وتتعلم من سيرته الصبر على المحن والفتن ، والجد فى الذود عن الوطن والازدراء لكيد الاعداء والثبات لمكر الخصوم

انما الرجل العظيم كتاب خالد ، لم يضعه الدهر لجيل بعينه ولا لشعب بعينه . وانما وضعه للاجيال جميعا وللشعوب جميعا . يعرف الناس أوله ولكنهم لا يعرفون له آخراً . يستطيعون أن يعرفوا أول هذا الكتاب حين يعرفون مولد هذا الرجل ونشأته ، ولكنهم لن يعرفوا آخر الكتاب اذا عرفوا موته لان هذا الموت لا يختم حياة العظماء ، ولعله يبدأها . أو يبدأ خير أجزائها وأعظمها غناء . لانه يزيل منها العناصر الفانية ويبقى منها العناصر التى لا تقبل الفناء . فاذا عرف الناس أن سعداً قد

ولد عام كذا ومات عام كذا ، فانهم قد بدأوا كتاب سعد ولكنهم لن يختموه إلا اذا كان للخلود ختام

فقد تختلف الخطوب على مصر والشرق ، وقد تلم بهما الاحداث وقد يصيبهما الخير والشر ويتناوبهما البؤس والنعيم . ولكنهما سيذكران دائما ان هذا الرجل قد فتح لهما باب الحياة العزيزة الكريمة وعلمهما كيف يبتغيان لها الوسائل ويسلكان اليها الطرق ويصبران فى سبيلها لما يفرض عليهما من تضحية وما يلم بهما من آلام

وستبحث مصر وسيبحث الشرق عن عظمة سعد هذه من أين جاءته وكيف أتيحت له . وسيجدان هذه العظمة فى كل ما يعرفان وما سيكشف لهما التاريخ من حياة سعد ، سيجدانه فى صبره الذى لم يكن يعرف ضيقا بالحوادث ولا اشفاقا منها ، وفى مضائه الذى لم يكن يعرف وقوفا عن السعى ولا التواء عن قصد السبيل ، وفى حلمه الذى لم يكن يعرف بطشا بالجاهل حين يقدر على البطش ، وفى غضبه الذى لم يكن يعرف هوادة فى الحق حين يأبى الحق الهوادة على طلابه ، وفى لسانه الذى لم يعرف وقوفا ولا ترددا حين يجب القول ، وفى قلمه الذى لم يكن يعرف اضطرابا حين يجب المضى ، وفى عقله الذى لم يكن يعرف كلالا حين يجب التفكير ، وفى فطنته التى لم تكن تعيا بمشكلة ولا تفتر عن معضلة ولا تعجز عن النفاذ الى أعماق ما يعترضها من الامور ، وفى غير ذلك مما يعرفه الناس ومما لا يعرفونه . وأكبر الظن أن الناس لم يعرفوا من أمر هذا الرجل الا أقله لان حياة العظماء لا يكشف عن أمرها للناس ولا تبدو أسرارها ودخائلها الا حين يبعد بها العهد وحين يتعرض غيرها من حياة الناس لعبث النسيان

ليذكر المصريون سعداً اليوم ، وليذكروه غداً فانهم لا يحسنون بذلك الى سعد كما يحسنون بذلك الى أنفسهم ، فقد انتقل سعد الى هذه الدار الخالدة التى لا يفيد العظماء فيها من ذكر الناس لهم شيئا ، وانما يفيد الناس من ذكرهم العظماء ، لانهم يجدون من سيرتهم ما يعلمهم الصبر حين يحتاجون الى الجهاد ، وازدراء الكوارث حين يحتاجون الى ازدراء الكوارث . وما أشد حاجة المصريين فى كل يوم وفى هذه الايام خاصة الى ان يذكروا سعداً ويطيلوا النظر فى سيرته ليعرفوا كيف يكون الصبر حين تلم الخطوب ، وكيف يكون الجهاد حين يتألب العدو ، وكيف يكون حسن البلاء حين يطالب الوطن أبناءه بأن يبذلوا ما يملكون من قوة وجهد ومن مال وروح ليحفظوا عليه عزته وكرامته وليبلغوا به ما يريد من حرية واستقلال

ليلة البدر (١)

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

هات لي الذكرى وجدد ما مضى عندك الذكرى ورجعاها معا
هات ما كان كما كان انقضى أو فجدد غيره مبتدعا
ليلة البدر وقد كان الرضى موعد الاهرام نبغي مطلعا
فقضى الله سواه غرضا

* * *

قد ثوينا ونوى الغيبُ لنا نيةً أمتعَ للمستمتع
خسف البدر وأمسيت أنا أدَّعي من نشوة ما أدَّعي
كلما ناديتني هيا بنا ! قلت : هيا ! وأنا في موضعي
السنى عندي فمالي والسنى ؟ !

* * *

خسف البدر وما كان الخسوف شيمةَ البدر الذي بين يدىّ
نشر الناس وطافوا بالدفوف وأنا والبدر في نشر وطيّ
خل من شاء كما شاء يطوف إن بدري طالعٌ منه إلى
لا أحب البدر ترعاه الالوف

* * *

---

(١) من ديوان (وحي الاربعين)

يا سمير الليل يا نعم السمير ... مالنا والصبح ما دمتُ أراك
أنا في نور وروض وعبير ... حيثما ألقاك لا ألقى سواك
رشفة من ثغرك العذب النضير ... أو من الكأس احتوتها شفتاك
وسلام أيها الكون المنير !

* * *

هات لى من فيك أنفاس الغرام ... أو فقل إن شئت أنفاس الحياة
واسقني الخمرة من أعذب جام ... لا من البلور في أيدي السقاة
ثغرك الضاحك كأس ومدام ... ونديم لى ، وراو في الرواة
ينشد الشعر فيشجينى الكلام

* * *

ينشد الشعر جديداً كالصِّبا ... وأنا ناظمه منذ سنين
بثَّ فيه من صباه عجباً ... فاذا قلتَ ارتجالٌ لا تمين
هات لى الحسن وهات الادبا ... واسقني الخمر من الثغر المبين
ذاك حسبى فى زماني مطلبا !

جراف تسبلن

تحية الرهبة والاعجاب الى الدكتور هوجو اكنر

بقلم المترجم

روعت القلوب ، أنت الذى لا تأخذك روعة ، ولكنها روعة العجب . وضعضعت الافكار ، أنت الذى لاينتابك تضعضع ، ولكنه تضعضع الطرب

تجمع الافق خاشعا عند مرورك ، فكأنه قد انقلب ميدانا أعد لبديع ابلائك ، واشرأبت السحب ، وشحب قرص الشمس . وبهت لمعان الاشعة لانها جميعا لمحت فيك دليلا على قدرة الله فى الانسان

يا مهاجم العواصف والاخطار . ومنازل الزعازع والاقدار ، وقاهر العناصر والطبيعة الجبار لكثر ما اشد مواطنوك : « المانيا فوق الجميع » وها أنت اليوم تجوب السماوات العلى باحثاً عن مقر لمطلبك ، فارضاً على النجوم افساح المكان لرايتك ، مرغما حتى مجاهل الخليقة على الاعتراف بعبقريتك وشكيمتك

قوة فى رشاقة . ورهبة فى أنس . وهول فى جمال . وتهديد فى مصافاة . واقدام فى حبور . واقتحام فى رزانة . وتعاظم فى اناقة . واقتراب فى تباعد . واسراع فى هوادة . وسيطرة فى وداعة — ذاك هو مظهرك المتعدد ، عندما انقلب الفضاء لاجلك بحراً تسبح فيه أنت كأفخم السابحات

حلقت فوق القاهرة الخالدة ، فأشرت اليها بأن للخلود استكمالا تبدى شيء كثير منه فيك . وحمت فوق مرابض الروحانية والاسرار ، فأومأت بأن للروحانية والاسرار امتداداً فوق الارض . وناجيت بعبورك الجدران العظيمة والهياكل الرائعة والتماثيل الصامتة ، لتقول ان الانسان المقدام لا يكتفى بكوكب ولا يستقر فى مكان وأنه مضى يستطلع فيافى الافلاك ليضرب فيها خيامه

منذ عديد القرون وأبو الهول رابض فى إيوانه السنى يترقب صامتا بادرة مجهولة لا بد أن تقبل عليه . أفأنت تلك البادرة أم أنت رائدها الاول ؟

ومثلثات الاهرام قائمة عند مدخل الصحراء تنطق بحديث لايفهمه أحد منذ ابتداء الدهور أأنت استطعت أن تلم بالمعنى القديم من حديثها الصامت ، وكما غلبت العناصر تغلبت كذلك على ذكاء العصور ؟

تحليقك أمثولة للثبات ، ومشهدك أمثولة للثبات ، وفوزك أمثولة للثبات ، وتحيتك الينا حث على الثبات ، فكل من شهدك وراقبك وسمعك استفاد ، وتلك أمثولة رسبت فينا

ما أثقل الاخشاب والمعادن وزنا ، وما أجمدها حركة وأفزعها روحا فى مكانها . وما أخفها وزنا وألطفها حركة وأوعاها حساً !

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف أيها المعجزة المتحركة على الدوام . بك أدركنا أن للميكانيكا نبضا كنبض الحياة . بك أدركنا أن احلام الشعراء وخيالات المتخيلين هي الحقائق الراهنة عند العلماء وعند الشرعيين !

طر وحلق واسبح وحم وطف وتجول ، لتحمل بنى الانسان على خلق كلمات جديدة فى لغاتهم يصفونك بها و يمجدون

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف واخلق فينا رعشات جديدة واعجاباً جديداً وعزما جديداً وادراكا جديداً للاقدام والنشاط . فما استطاع امرؤ أن يرتفع ويحلق دون ان يرتفع ويحلق مثله النابهون من معاصريه

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف فى القريب والسحيق من الاجواء . فانت فى كل مكان الاعجوبة الجبارة التى تلقى الروعة فى النفوس ، وتعلو بالعقول الى مافوق محيطها المألوف ، وتهتف بكل من يرى ويسمع ويعى : الثبات الثبات !

اذهب بعيداً فى تجوالك فانت ما زلت عنـد أول غزواتك الفلكية . وللعبقرية والبطولة حق أن تطوى شاسعات الابعاد . وليس عزيزاً عليها حتى الوصول إلى عتبات الغيوب !

اذهب بعيداً وتجول كثيراً وكن فى كل جولة وكل تطواف رسولا بين المعلوم والمجهول . اذهب وطر وترنم وانشد ناشراً رسالة الارض فى مترامیات المدى . ولا تكن أبداً حربا ونقمة بل كن دائماً سلما ونعمة على العالمين

ذكرى . . .

أباعـدتمونا ما أقل وفاءكم فليس على أنا نباعدكم ندم
ولكن وداً كان بالبيت لم يكن تمر له ذكرى ويتبعهـا ألم

حسين شفيق المصرى

دمعي

للأستاذ جميل صدقي الزهاوي

انت ما إن تخففين مصابي ... دمعتي فارجعي على الأعقاب
أنت لا تدرئين عني دائي ... أنت لا تصلحين منه خرابي
أنت لا تنجدينني في شقائي ... أنت لاتنقذينني من عذابي
أنت لاتدفعين وطأة شيبي ... أنت لا ترجعين عهد شبابي
أنت لا تقدرين أن تهبيني ... راحة أو تسكّني أعصابي
إنما أنت قطرة ستبلين ... إذا سلت بقعة من ثيابي
أو تضيعين بين لحيتي البيضا ... ء أو تنضبين فوق التراب
ارجعي فالحياة ليست تساوى ... أن تخرى من حالق كالشهاب
لاتخرى وان قضى أن تخرى ... سبب قاهر من الاسباب
إن نفسي لا ترتضي أن تهوني ... كشجوني وإن ملأن اهابي
يا ابنة الهم إن غرفتك القلـ ... ـب فلا تخرجي الى الابواب
دمعتي لا تعولي في رزايا ... ك على وعد دهرك الكذاب
فارجعي في مهل الى القلب مني ... أنت لاتخلقين بالتسكاب
أتريدين من مقرك في نفـ ... ـسي فراراً ينجيك من حر مابي
أنا لم أسأل العيون بكاء ... لتكوني عن السؤال جوابي
وإذا ما هبطت بالرغم عني ... طال يا دمعتي عليك عتابي
إنني إن بكيت أبكي بشعري ... ولقد أهديه إلى الاحقاب
كل بيتٍ منه إذا عصروه ... دمعة ثرة على الآداب
بين شعري وما يجيش بصدري ... من شعور وشائج الانساب
أنا عنه محدث وهو عني ... وكلانا في القول غير محاب

الساقون الثلاثة

بقلم الاستاذ توفيق الحكيم

« جرسونات » ثلاثة فى قهوة الدنيا ، إذا ناديتهم اقبلوا « بالطلبات » وهم يرقصون ، وفى عيونهم وشفاههم بسمات خفية ساخرة لا ترتاح لها نفس . . اول « جرسون » من هؤلاء طفل . وهو ابداً طفل وعمره أبداً خمس سنين . . ويدعونه «الحب» . والثانى رجل وهو أبداً رجل وعمره أبداً أربعون سنة . . ويسمونه « الشيطان » . وثالثهم لا عمر له ويدعى « الموت » . والموت هو « الجرسون » الوحيد من بين الثلاثة الذى لم أفكر يوما فى تكليفه بأى طلب . . منظره لا يعجبنى وحسبى منه وقفته الوقحة و « فوطته » القذرة التى بها الف خرق ، وضحكته التى كسعال المسلولين وأسنانه الصفراء العفنة من تأثير إدمانه على التدخين والمغيبات . . انه « يقرفنى » ومحال أن أتناول شيئاً من يده طوعاً واختياراً . .

أما « الشيطان » فيعجبنى بطلاقته وزلفاه وذكائه . . ولولا علمى أنه محكموم عليه غيابيا . . وأنه من أرباب السوابق فى جرائم النصب والاحتيال . . لركنا اليه . . أنا وكافة « الزبائن » . .

أما « الحب » فالويل من هذا الطفل الجاهل الجميل . . إنه يأسرنى بلطفه ورقته . . أجل إنه الساقي الوحيد الذى أتناول من يده كل شيء . . وبلا تحفظ غير مبال إن كان مايعطينى سما أو « شمبانيا » . .

ناديته فى الربيع الماضى فأقبل يحمل الى الكأس . . ووقف ينظر إلى برقة ساحرة ويبتسم إلى بابتسامة خلابة تحوى أشياء لم أكن لأدركها فى ذلك الحين :

ـــ ماذا تريد ؟ . . (البقشيش) ؟ . .

ـــ كلا . . أريد أن لا تطلب إلى شيئاً بعد ذلك . . إياك أن تطلب قليلا من الثلج . . إن طلبت قليلا من الثلج فلن آتى لك بطلبك . .

ـــ اطمئن . : لن أطلب اليك شيئاً . . أبداً . . لا (ثلج) ولا (سيفون) . . وأقبلت على الكأس . .

لكنه استوقفنى أيضاً ، وغافلنى وحمل الكأس وجرى قليلا . ثم ضحك ضحكة صبيانية وقال فى نبرة ملائكية :

ـــ سأعذبك . .

غير أنى لم أسمع ولم أر ولم أدرك الا شيئا واحداً : انه حمل الكأس وابتعد ، فارتجفت وصحت مدفوعاً بالرغبة والظمأ . .

ـــ هات الكأس ياجرسون . .

فاقترب به من شفتى . . وقال بنفس الصوت الموسيقي العذب . .

ـــ سأعذبك !

ـــ هات الكأس ياجرسون ! !

ـــ سوف تلعننى . .

ـــ أنا ؟ ؟ !

ـــ سوف تمقتنى . .

ـــ أنا عبدك . .

ـــ سأعذبك . .

ـــ هات الكأس . .

ـــ خذ !

ومضى عام :

ـــ ياجرسون . ياجرسون !

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ الثلج . . فى الحال . . الثلج !

ـــ لقد أنذرتك

ـــ أرجو منك . . قطعة واحدة من الثلج !

ـــ قد أنذرتك

ـــ قطعة . . ولك ما تريد . .

ـــ عند النجوم ماتروم !

ـــ لا تبتعد ! . . لا تهزأ بى لن تتركنى قبل احضار الثلج

ـــ عند النجوم ماتروم !

ـــ لقد خدعتنى . . ما كنت أظن طفلا بريئا جميلا يجرؤ على هذه الجريمة : يقدم الى بدل ماء الورد ماء النار !

ـــ الورد والنار . . يالك من غرسادج ! . . الورد والنار هما عنصرا حياتى . وهما لون خدودى ولون شرابى !

ـــ قطعة من الثلج . . ولك ما شئت !

ـــ محال . . !

ـــ رحماك !

ـــ لو كنت عاقلا لادركت أن الثلج ليس فى عهدتى

ـــ لماذا ؟ ؟ . . لماذا ؟ ؟ . .

ـــ سل صاحب القهوة . .

ـــ أنقذنى . . لعنة الله عليك . .

ـــ الثلج لا يمكن أن يكون فى عهدتى . .

ـــ آه ياملعون ! ! وما العمل ؟

ـــ عليك بجرسون آخر ؟ ؟

ـــ جرسون آخر . . من ؟ ؟ من ؟ ؟

(يجرى « الحب » الى « الشيطان » ويسر اليه كلاماً . . ثم يشير بيده الى « الزبون » ثم يتقدم « الشيطان »)

ـــ أنا . . هو . . ماطلبك ؟ . . أنا القدير على تنفيذ رغبتك . . مرنى أطع أيها السيد النبيل !

ـــ الشيطان ! !

ـــ خادمك . ! ـــ كلا مستحيل أنت من أرباب السوابق

ـــ مظلوم ! . . . وربك لم يثبت ضدى شىء . لا تصدق وشايات الناس . وربك إنى متهم زوراً وبهتاناً

ـــ ما الدليل على براءتك ؟

ـــ هاك . . رخصتى . . بيضاء كقلب الجنين . . ! !

ـــ أليست . . مزورة . . ؟ ؟ ؟ على كل حال أنا فى حاجة اليك الآن ! انى فى حاجة شديدة اليك . . أسامع ؟ ؟

ـــ محسوبك . . .

ـــ . . الحب . . هزأ بى . . . انتقم لى . . .

ـــ آسف ! والله . ! الحب زميلى وليس لى سلطان عليه . . .

ـــ ما العمل اذن ؟ . . . ـــ دع الانتقام . . وفكر فى الدواء . .

ـــ الدواء . . الثلج . . قطعة من الثلج . . اذن ! !

ـــ الثلج ليس بالدواء . . الدواء هو . . .

ـــ هو ! ! هو ماذا ؟ ـــ هو الداء . . وداوها بالتى كانت هى الداء . .

ـــ ماذا تعنى . . ؟ ـــ أطلب من « الحب » كأسا أخرى . . !

ـــ قل سما آخر ، ، ناراً أخرى سائلة تطفو عليها الورود ؟ . . لا . : أيها النصاب لقد خدعت مرة . .

ـــ ومن ادراك ؟ . ربما هذه المرة . !

ـــ اخرس . يامنافق . . دوائي الثلج . . وأنا أدرى الناس بدوائى . . أعطنى قطعة من الثلج . . أسرع بالثلج . .

ـــ محال . . ـــ أنت أيضا . .

ـــ الثلج ليس فى عهدتى . . ـــ كيف ذلك . . كيف ذلك ؟ . .

ـــ سل صاحب القهوة ! . . ـــ وما العمل ؟ . . ارحمنى ! . .

ـــ أدلك على « جرسون » آخر . . وأوصيه بك خيراً . . فلطالما أوصيته عند اللزوم بزبائننا الكرام . .

(يجرى مهرولا إلى « الموت » ويسر اليه كلاما ويشير الى « الزبون » ثم يتقدم « الموت » فى بطء وهو يبتسم ساخراً)

ـــ من ذا الذى يطلبنى . ؟ ـــ الموت ! ! . . آه . . لا ، لا . . لا . . أبداً . .

ـــ عجبا لكم . . يا معشر الزبائن . . ! كلكم متشابهون . . تطلبون ثم تنكرون ! ألم تطلبنى أيها « الزبون » ؟ ؟ ها . . حا . . حا . . حا . .

ـــ لا تسل فى وجهى . . أغرب عنى . .

ـــ عجباً لك ! . حا . حا . سعالى يخيفك . . اتحسبنى مسلولا . . لا . . اخطأت . ! هذا من الافيون . . نعم . . ها . حا . . حا . . الا تحب تعاطى الافيون . ؟

ـــ بالله . . ابتعد . . أسنانك الصفراء . . ابتعد . . ابتعد . .

ـــ والثلج . . الا تطلب الثلج . . هو فى عهدتى ألا تريد ؟ ؟ . .

ـــ فى عهدتك ؟ ؟ . .

ـــ فى عهدتى دائما ؟ . . من يوم (نزولى الخدمة) بهذه القهوة . .

ـــ كلا لا تقربنى . . قلت لك . . لا تقربنى . أستودعك الله . !

ـــ إلى أين ! ؟ حا . حا

ـــ ابتعد عنى . . انت لا تطاق . . رائحتك كريهة . .

ـــ والثلج . . حا . . حا . . ألا تطلب ثلجا . . ابيض . . تعال لا تخف . . تعال . . ثلجا أبيض مثل الكفن ! !

ـــ النجدة . . النجدة . . الى ياجرسون «حب» يا جرسون « شيطان » ياصاحب القهوة . . انقذونى من هذا الجرسون الفظيع . . كل شىء يطاق الا هذا الجرسون البارد الفظيع . .

حديث قطين (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام في موضوع الانشاء ما يأتي :

« تقابل قطان أحدهما تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله . فماذا يقولان اذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، والى أي غاية ينصرف القول في محاورتهما ، وضاقوا جميعاً - وهم أطفال - أن تكون في رءوسهم عقول السنانير ، وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة في هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة . فيكتنهوا تدبير هذه القطاط لحياتها . وينفذوا الى طبائعها . ويندمجوا في جلودها . ويأكلوا بأنيابها . ويمزقوا بمخالبها

... إن مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق هرتين . لا الحديث عنهما . فان اجادة الانشاء في مثل هذا الباب ألوهية عقلية تخلق خلقها السوى الجميل نابضاً حياً كأنما وضعت في الكلام قلب هر ، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام . وأين هذا من الاطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولها ؟ وكيف لهم في هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود . ويداخلوا أسرار الخليقة . ويصبحوا مع كل شيء رهناً بعلله ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها . وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية : « كن زهرة وصف واجعل نفسك حبة قمح وقل » . وانما هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ، إذ النبي تعبير إلهي تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلمتها التي تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير . تتخذه تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التي تسمى الفن

وقد كان في القديم امتحان مثل هذا . لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة . وكان الممتحن فيه هو الله جل جلاله . والموضوع حديث النمل مع النملة . والناجح سليمان عليه السلام « قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم . لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها »

---

(١) اخترناها له . . .

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة . إذ كانت الروح فى ذاتها نوراً ، وكان سر كل شيء هو من النور والشعاع يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء . وفى امتزاج الاشعة من النفس والمادة تجاوب روحانى هو بذاته تبصير فى البصيرة وإدراك فى الذهن . وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه : فى الكلمة والصورة والمثال والنغمة ، أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى

ومن ذلك لا يكون البيان العالى أتم إشراقا إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أو رذيلتها على السواء . فان من عجائب السخرية بهذا الانسان أن يكون تمام الرذيلة فى أثره على العمل الفنى — هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل . والنقطة التى ينتهى فيها العلو من محيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدار إلى السفل . ومن ثم كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمعزل . فالأصل هناك سمو التعبير وجماله وبلاغة الأداء وروعتها . ولا يكون السؤال الفنى ما هى قيمة هذه النفس . ولكن ما طريقتها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ اليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن . كما للجنة حق فى نوابغه . واذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة أفلا تقول الجحيم وهذه بلاغة رذائلى ؟ وكيف لعمرى يستطيع ابليس أن يؤدى عمله الفنى . . ويصور بلاغته العالية إلا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل . وساقطات من أهل الجسم الجميل ؟

* * *

لقد بعدنا عن القطين . وانا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما

كان القط الهزيل مرابطا فى زقاق . وقد طارد فأرة فانجحرت فى شق . فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج . ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبترها . وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها . وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقطط بعضها مع بعض . لا كاطفال الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم

وأبصر الهزيل من بعيد فاقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلع تخلع الأسد فى مشيته وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غلظاً ، وفى عصبه شدة ، وفى شعره بريقاً ، وهو يموج فى بدنه من قوة وعافية ويكاد إهابه ينشق سمناً وكدنة . فانكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة . وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً منقبضاً طاوى البطن ، بارز الاضلاع ، كانما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر . فقال له : ماذا بك ؟ ومالى أراك متيبساً كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ! ومالك أعطيت الحياة غير انك لم تحى ! أوليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد . فمالك — ويحك — رجعت

صورة مختزلة من المر ! أفلا يسقونك اللبن ويطعمونك الشحمة واللحمة ويأتونك بالسمك ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ويفتون لك الخبز فى المرق ويؤثرك الطفل ببعض طعامه وتدللك الفتاة على صدرها وتمسحك المرأة بيدها ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه ؟ وما لجلدك هذا مغبراً كأنك لا تلطعه بلعابك ولا تتعهده بتنظيف . وكأنك لم تر قط فتى أو فتاة يجرى الدهان بريقاً فى شعره أو شعرها فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما ! وأراك متزايل الأعضاء متفككا حتى ضعفت وجهدت . كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك . ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهيتك . وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشية ولا وسادة ولا بساطاً ولا طرازاً . وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والهشيم اليابس . فما له من لحم يجيء من لحم ولا دم يكون من دم . وانحط فيه جسم الأسد وسكنت فيه روح الحمار !

قال الهزيل : وإن لك لحمة وشحمة ولبناً وسمكا وجبناً وفتاتاً . وإنك لتقضى يومك تلطع جلدك ماسحاً وغاسلا . أو تنطرح على الوسائد والطنافس نائماً ومتمدداً . أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً . وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة . وأحكمت طبعاً ونقضت طباعا . وربحت شبعاً وخسرت لذة . عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك . وحملوك وأعجزوك أن تستقل . وقد صرت معهم كالدجاجة تسمن لتذبح . غير أنهم يذبحونك دلالا وملالا

إنك لتأكل من خوان أصحابك . وتنظر إليهم يأكلون . وتطمع فى مؤاكلتهم . فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لاشيء غير هذا . وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها

إن كان أول مافى الحياة أن تأكل فأهون مافى الحياة أن تأكل . ومايقتلك شيء كاستواء الحال ولا يحييك شيء كتفاوتها . والبطن لا يتجاوز البطن . ولذته لذته وحدها . ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك . وعن العلل الباطنة التى تحركنا إلى لذات أعضائنا ومتاع أرواحنا . وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر . وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله لا من قبل المعدة وحدها ؟

قال السمين : تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة . وأرانى بازائك معدوماً بزوال أسلافى منى . وأراك بازائى موجوداً بوجود أسلافك فيك . ناشدتك الله الا ما وصفت لى هذه اللذات التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع . وتستطيل بها الى مرتبة الوجود الاكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : انك ضخم ولكنك أبله . أما علمت ـ ويحك ـ أن المحنة فى العيش هى فكرة وقوة . وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة . وأن لهفة الحرمان هى التى تضع فى الكسب لذة الكسب . وسعار الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح . وأن ماعدل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة . فان رغباتنا لا بد لها أن تجوع

وتغتذى كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا . ليوجد كل منهما حياته فى الحياة . والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراض معاشة . فان لم تنقص من لذتها فهى لن تزيد فى لذتها .

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التى تجعل الأحسن أحسن مما يكون . وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو . وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصور من الدنيا بين الأيدى والأرجل ؟ انك كالأسد فى القفص ، صغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة فى جلد . أما أنا فأسد على مخالبى ووراء انيابى . وغيضتى أبداً تتسع ولا تزال تتسع أبداً . وان الحرية لتجعلنى أتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام . وأستروح من التراب لذة كلذة اللحم . وما الشقاء الا خلتان من خلال النفس : اما واحدة فان يكون فى شرهك ما يجعل الكثير قليلا . وهذه ليست لمثلى مادمت على حد الكفاف من العيش . واما الثانية فان يكون فى طمعك ما يجعل القليل غير قليل . وهذه ليس لها مثلى مادمت على ذلك الحد من الكفاف . والسعادة والشقاء كالحق والباطل . كلها من قبل الذات . لا من قبل الاسباب والعلل . فمن جاراها سعد بها . ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى

ولقد كنت الساعة اختل فأرة انجحرت فى هذا الشق فطعمت منها لذة وان لم اطعم لحماً . وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عقرى فاحدث لى وجعاً . ولكن الوجع احدث لى الاحتراس . وسأغشى الآن هذه الدار التى بازائنا فأية لذة فى السلة والخطفة والاستراق والانتهاب ثم الوثب شدا بعد ذلك ؟ هل ذقت أنت بروحك لذة الفرصة والنهزة ، أو وجدت فى قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة او جرذ ، او ادركت يوماً فرحة النجاة بعد الروغان من عابث او باغ او ظالم ؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هولك طفل بالضرب فهولته انت بالعض والعقر ففر عنك منهزماً لا يلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذات كلها وانا لا ادرى ؟ هلم اتوحش معك . ليكون لى مثل ذكرك ودهائك واحتيالك . فيكون لى مثل راحتك المكدودة ولذتك المتعبة وعمرك المحكوم عليه منك . وسأتصدى معك للرزق اطارده واوائبه . فقطع عليه الهزيل وقال :

يا صاحبى ، إن عليك من لحمك ونعمتك علامة اسرك . فلا يلقانا اول طفل الا هوى لك فاخذك اسيراً واهوى على بالضرب لا نطلق حرا فانت على نفسك بلاء وانت بنفسك بلاء على

وكانت الفأرة التى انجحرت قد رات ما وقع بينهما . فسرها اشتغال الشر بالشر .. وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة فوثبت وثبة من ينجو بحياته . ودخلت فى باب مفتوح ولمحها الهزيل كما تلمح العين برقاً اومض وانطفأ . فقال للسمين : اذهب راشدا . فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة ان الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق . وكذلك امثالك فى الدنيا . هم بالفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الاسفل . .

المدنية المصرية القديمة

ومسلك المدنيتين اليونانية والرومانية معها

هي الاصل فيهما ، ولكنهما تجاهلتاها

بقلم الاستاذ عبد القادر حمزة

كل الذين قرأوا شيئاً من الفلسفة العربية يعرفون أنها كلها تقريباً منقولة فى الاصل عن الفلسفة اليونانية ، وأن القليل الذى لايكاد يذكر منها هو الذى نقل عن الحكمة الهندية والحكمة الفارسية . كما يعرفون أن العرب كانوا فى هـذا النقل مثلا عالياً لصفتين شريفتين هما الصراحة والامانة . فأما الصراحة فهى أن العرب لم ينتحلوا شيئاً ليس لهم بل نقلوا الفلسفة اليونانية معزوة كل كلمة منها الى صاحبها ولم يدعوا لأنفسهم إلا الشىء الذى زادوه عليها . وأما الامانة فهى أنهم بذلوا جهداً كبيراً فى تحرى الدقة والتوسع فى جميع ما نقلوه ، حتى كانت الفلسفة اليونانية لا تعرف فى أوربا فى العصور الوسطى وفى أول عصر النهضة Renaissance إلا فى الكتب العربية ، ولم تدرس فى كتبها اليونانية إلا بعد ذلك

وللرئيس ابن سينا كتب عديدة كلها ترجمة لآراء الفلاسفة اليونانيين وخاصة آراء ارسطو الذى يسميه العرب « المعلم الأول » . ولابن رشد عشرات من الكتب كلها كذلك ترجمة لآراء ارسطو وما نخص بالذكر هنا ابن سينا وابن رشد الا لانهما أكبر فلاسفة العرب ، والا فالحقيقة أنك لا تجد واحداً من الذين اشتغلوا بالفلسفة فى العرب الا ومن محصوله العلمى نقل عن هـذا أو ذاك من فلاسفة اليونان . وكتب ابن رشد عن أرسطو هى التى نقلها بعض تلاميذه — بعد أن نكبه المنصور — الى أوربا فترجمت فيها الى اللاتينية ومنها عرف الاوربيون فى ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه . فاستمروا يدرسون فيها هذه الآراء زمنا طويلا الى أن اهتدوا بعد ذلك الى كتب أرسطو فى لغته

ومعنى هذا أن المدنية العربية حملت الفلسفة اليونانية فى جوفها معزوة الى أصحابها حتى أدتها بعد ذلك الى المدنية الاوربية . فكانت فى هذه التأدية ، كما قلنا ، مثلا عالياً للصراحة والامانة ، وكانت خدمتها للمدنية اليونانية لا تقدر . ولسنا ندرى ما الذى كان يحدث لو أن المدنية العربية كانت غير صريحة ولا أمينة فنقلت ما نقلته عن أرسطو وأفلاطون وسقراط وسولون وأرشميدس وغيرهم فلم

تعزه اليهم ولم تذكر أسماءهم بل ادعته لنفسها وصاغته صياغة أخرى مبالغة منها فى إخفاء المصادر التى أخذت عنها . لسنا ندرى حينئذ هل كانت المدنية الحديثة تعرف الفلاسفة اليونانيين كما تعرفهم الآن وتعرف كل واحد منهم بآرائه ، او كانت تجهلهم فلا يبقى مذكوراً منهم ومن آرائهم الا شىء مبهم كالذى يذكر الآن عن حكماء المدنيات القديمة الفارسية والكلدانية والهندية والصينية وغيرها !

وانما نقول هذا لانه كان قد جاء وقت طويت فيه أسماء الفلاسفة اليونانيين وطويت فيه كتبهم حتى فى اليونان نفسها . وما تنبه الاوربيون اليهم إلا بعد ان اطلعوا على الكتب العربية مترجمة الى اللاتينية ، فلو أن هذه الكتب لم تذكر الفلاسفة اليونانيين ولم تنقل آراءهم نقل صراحة وامانة لكانت النتيجة أن يتأخر على الاقل تنبه الاوربيين اليهم مائة سنة أو مائتين أو اكثر . ولايعلم أحد ما يمكن حينئذ أن يصيب كتبهم فى هذا الزمن ، فقد كان ممكنا أن تذهب الحوادث بجزء منها أو بها كلها كما ذهبت قبل ذلك بعلوم المصريين

ذلك مافعلته المدنية العربية مع المدنية اليونانية . والان فلنرجع الى الخلف قليلا ولننظر ماذا فعلته المدنيتان اليونانية والرومانية مع مدنية سبقتهما هى المدنية المصرية

يقدر بعض الباحثين الزمن الذى استمرت فيه المدنية المصرية من وقت نشوئها فى عهد الملك مينا الى أن انطفأت آخر شعلة من نورها على يد الرومانيين ، بنحو أربعة آلاف سنة . ويرى الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه « الحضارة المصرية » أن التقدير الصحيح يجب أن يكون أكثر من هذا لان هذه الاربعة آلاف سنة تبتدىء من وقت يقول التاريخ ان مصر فيه كانت عزيزة الجانب ، وتدل آثاره التى ما تزال باقية على أن المصريين فيه كانوا أهل علم راق وصناعة راقية ، ولا يقبل العقل أن يكون هذا العلم وهذه الصناعة قد وجدا فجأة ، فلابد لهما من زمن تدرجا فيه بعد ان تمهدت لهما الاسباب . واذن يكون هناك فى رأى جوستاف لوبون عصر من المدنية المصرية سابق على العهد الذى نعرفه مبتدئاً بحكم الملك مينا . وهو عصر جهلناه لان التاريخ لم يحدثنا بشىء من أخباره

وكما كانت المدنية المصرية طويلة العهد ، كانت طويلة الاحتضار حتى لقد شهدت فى احتضارها هذا مدنيتين : احداهما المدنية اليونانية من نشوئها الى نضجها الى سقوطها ، والثانية المدنية الرومانية من نشوئها الى بلوغها الاوج على يد يوليوس قيصر . وكانت النكبات التى حلت بها والحروب والغزوات التى عانتها وحوادث النهب والتدمير والاحراق التى تناوبتها عديدة طويلة ، لم تقض فقط على مدنيتها بل قضت فوق ذلك على العلوم التى قامت بها هذه المدنية . ثم تبدلت لغة المصريين بعد هذا فانقطعت الصلة بينهم وبين ماضيهم ، ثم نسيت اللغة القديمة حتى ماتت ولم يبق من يعرفها فانقطعت الصلة بين العالم كله وبين المدنية المصرية وعلومها ، ولم يبق من هذه المدنية غير آثارها يراها الناس فيحكمون بانها كانت مدنية علم راق ولكنهم لايعرفون من هذا العلم شيئاً

ومع أننا عرفنا الآن اللغة المصرية القديمة فاننا لم نقف على شىء يستحق الذكر من علوم المدنية

المصرية . وقد قال الدكتور جوستاف لوبون فى ذلك : « لم يؤلف كتاب عن مصر الا وفيه اطراء عظيم لمعارف المصريين . ولكن اذا أريد تحديد مدى هذه المعارف بالدقة أعوزت المصادر والمستندات. فالا كتفاء ببعض صحف امر لابد منه لان الكتابة المستفيضة فى علوم المصريين تقرب من المحال » ثم قال فى موضع آخر : « لم يبق لنا من علوم المصريين الا ما دون فى اثنتين او ثلاث من ورق البردى ، وهو بسط لمبادىء أولية يرجح أنها كانت للتعليم فى مدارس الاطفال . ولكننا اذا حكمنا على علم المصريين بآثاره ونتائجه لم يسعنا الا ان نقول انه كان بالغاً الغاية القصوى فى التقدم »

فعلوم المدنية المصرية غير معروفة . والعلماء والمفكرون فى هذه المدنية التى سادت العالم أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، والتى استمر احتضارها عدة مئات من السنين لايعرفهم الناس كما يعرفون كتاب اليونان وفلاسفتهم كلا منهم باسمه ورأيه والعلم الذى نبغ فيه . واذن نسأل ماهو موقف المدنية اليونانية فى هذا وهى التى جاءت تالية للمدنية المصرية ونشأت وقت احتضارها ؟ هل فعلت ما فعله العرب معها فحملت علومها الى الذين يأتون من بعدها أم لم تحمل شيئا ؟ وان كانت لم تحمل وكانت كتبها قد اغفلت العلوم المصرية والعلماء المصريين اغفالا تاماً فهل ذلك ناشىء من أنها لم تتصل بالمدنية المصرية ولم تستق شيئاً منها أم هى بالعكس اتصلت بها واستقت منها جميع عناصرها الحيوية ولكنها مع ذلك أغفلتها ؟

يمر الانسان بكتب الفلاسفة اليونانيين جميعاً فلا يجد فيها شيئاً يسمى علوماً مصرية وعلماء مصريين ، بل يجد آراء مبسوطة فى كل علم وفن على انها ابتكارهم وابتكار مدنيتهم لم يستندوا فيها الى شىء سابق . ولم يخالف هذه القاعدة فيما نعلم الا اثنان هما هيرودوت الذى يلقب أبا التاريخ وديودور الصقلى . وهذان مؤرخان عاشا فى الزمن الذى كانت المدنية المصرية فيه تحتضر . وقد الف كل منهما كتباً فى التاريخ فكان من الضرورى أن يعرضا لمصر . وقد عرضا لها فعلا ولكن على أنهما مؤرخان يعنيهما ذكر الملوك والحروب وشىء من عادات الشعب وأوصاف البلاد الجغرافية ولا يعنيهما شىء من العلماء والعلوم

ولهذا فان قارىء مؤلفات نوابغ المدنية اليونانية كارسطو وافلاطون وسولون وفيثاغورث وارشميدس وغيرهم يتخيل أن المدنية اليونانية أول عهد العالم بالعلم الصحيح ، وأن المدنيات التى سبقتها لم تعرف هذا العلم على أى وجه من الوجوه . ونظن أنه يكفى أن يفكر الانسان قليلا ليعلم أنه يستحيل أن يكون اليونانيون قد أنشأوا علومهم وفلسفتهم كلها من عند أنفسهم ، ولكن هذا ليس موضوع بحثنا الآن وانما موضوع البحث هو موقف الفلاسفة والعلماء اليونانيين من علوم المدنية المصرية ، وهذا الموقف يتلخص فى أنهم اغفلوها ولم يشيروا اليها فى شىء مما كتبوه

بقى ان نعرف هل سبب هذا الاغفال أنهم لم يتصلوا بالمدنية المصرية ولم يستقوا من علومها ؟ أم هم بالعكس اتصلوا بها واستقوا منها ولكنهم مع ذلك أغفلوها ؟

نتابع المدنية اليونانية من أول نشوئها فنرى فى هذا النشوء رجلين بارزين : أحدهما سولون Solon واضع القوانين والنظم لحكومة أثينا وقد عاش من سنة ٦٤٠ الى سنة ٥٩٩ قبل الميلاد، والثانى تاليس المليطى Thales de Milet أول وأقدم فيلسوف يونانى ، وقد عاش من سنة ٦٤٠ الى ٥٥٠ قبل الميلاد . فى ذلك الوقت كانت اليونان كالطفل الذى أخذ يحبو أو كالزهرة التى بدأ نباتها يظهر . فأين تعلم سولون وتاليس المليطى ؟ وفى أى المدارس تثقفا وعلى اى الاساتذة تخرجا ؟

يقول التاريخ الذى لا شك فيه إنهما تعلما فى مصر فى مدرسة عين شمس . وفى ذلك يقول شمبوليون صاحب حجر رشيد بعد كلام عن الذين تخرجوا على الأساتذة المصريين : « . . تعلم بها (أى بمصر) أيضاً سولون وتاليس المليطى كل ما علماه لليونانيين . . . . »

وتاليس المليطى هذا هو واضع الفلسفة القديمة التى تقول ان اصل الكائنات عنصر واحد بسيط هو الماء ، وهى فلسفة ظلت رائجة حتى جاء امبدكليس Empedocles (٤٩٠ ــ ٤٣٠ ق . م .) فعارضها وقال بالعناصر الاربعة الماء والهواء والنار والتراب

ندع هذا وننتقل خطوة أخرى فنصل الى فيثاغورس Pythagore (٥٤٠ ــ ٤٩٠ ق . م) وهو رجل من اهل جزيرة ساموا نبغ فى الرياضة والفلك نبوغا سوف يبقى به اسمه خالداً الى الأبد . وقد قال بكروية الارض وعالج فهم نظام الكون ، فقال انه على شكل كرة فى مركزها النار وان اجراما عشرة تدور حول هذه النار : اولها الارض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحيرة (أى الكواكب السيارة) ثم النجوم الثوابت . وجميع هذه الاجرام تدورحول النار المركزية . فلو انك وضعت فى هذا النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيخ التى تعد من اعظم الكتشافات العصر الحاضر

فأين تعلم فيثاغورس هذا وعلى يد من تخرج ؟

اجاب شمبليون عن هذا السؤال فقال ما يأتى حرفيا : « تعلم فيثا غورس بمصر كل ما استطاع معرفته » وفى الواقع ان التاريخ الذى لا شك فيه يقول لنا ان فيثاغورس تعلم فى مصر بمدرسة عين شمس . ولم يستمر تعلمه فيها سنة أو سنتين او خمسا او عشراً وانما استمر اثنتين وعشرين سنة . ثم غادرها بعد ذلك الى ايطاليا وجعل يكتب مؤلفاته فلا يقول فيها ان اساتذته فى مصر علموه شيئا وانما يقول انه هو يرى كيت وكيت

نتقدم بعد ذلك خطوة اخرى فنصل الى ديمقراطيس Democretie فى القرن الخامس قبل الميلاد . وهو أحد الفلاسفة المعدودين وأول من عارض القول بان المادة قابلة للتجزئة الى مالا نهاية له وقرر وجود الجزء الذى لا يتجزأ أو ما سمى فى الفلسفة العربية الجوهر الفرد

فأين تعلم ديمقراطيس هذا وعلى يد من تخرج ؟ تعلم فى مصر كما تعلم زملاؤه السابقون

ونتقدم خطوة أخرى أيضا فنصل الى أفلاطون Platon (٤٢٩ ــ ٣٤٧ ق. م.) كبير فلاسفة

اليونان واستاذ أرسطو وصاحب الفلسفة المعروفة باسمه والتى مازالت تدرس الى اليوم . قد يقول قائلون انه تلميذ لسقراط Socrate متخرج على يده ، ولكن كلا ، فان أفلاطون لم يلازم سقراط إلا بعد أن كان قد تعلم وصار جديرا بان يسمى زميلا له لا تلميذا . أما البلاد التى تعلم فيها فهى مصر ، وأما المدرسة التى علمته فهى مدرسة عين شمس ، وقد قال شمبوليون فى ذلك : « . . . . إننا نعرف اسماء الاساتذة الذين تلقى عليهم أفلاطون بمصر علمه فى مدرسة هليوبوليس »

فافلاطون تلميذ مصر لا تلميذ سقراط ، وقد كتب مؤلفات تعد بالعشرات ولكنه لم يذكر منها شيئاً عن علم عرفه فى مصر ولا عن أساتذة عرفهم من المصريين

وخطوة أخرى فنصل الى ارشميدس Archimedes (٢٨٧ ــ ٢١٢ ق.م.) أكبر المكتشفين الرياضيين فى المدنية اليونانية ومخترع المنجنيق ، والآلات الرافعة للاثقال ، والطنبور ، والمرايا المحرقة التى يقال انه احرق بها الاسطول الرومانى عندما كان يحاصر وطنه سرقوسة . هو أيضا تعلم علمه كله فى مصر ، ولكن فى مدرسة الاسكندرية . ونلاحظ أن المدنية اليونانية كانت فى ذلك الوقت قد بلغت أوجها فأخرجت افلاطون وارسطو ومع ذلك لم يقصد اليها ارشميدس ليتعلم فيها وانما قصد الى مصر

واذ قد ذكرنا مدرسة الاسكندرية فان هذه الكلمة الموجزة لا تتسع لذكر أسماء العشرات من العلماء اليونانيين الذين تخرجوا فيها . فلا محيص لنا من أن نكتفى بالاشارة الى بعض البارزين منهم . فمن هؤلاء اقليدس Euclid المعروف عند العرب باقليدس الصورى وهو صاحب كتاب « الاصول » الذى ترجمه العرب والذى يعتبر أساسا للهندسة . وابلونيوس Apollonios صاحب كتاب « المخروطات » الذى ترجمه العرب وهو من الاسس فى علم الهندسة أيضا . وبطليموس Ptolémée الذى يسميه العرب بطليموس القلوذى ، وهو عالم رياضى وفلكى الف كتاباً وصف فيه السماء وآلات الرصد ومساحة المثلثات المستقيمة الخطوط ، وقد ترجمه العرب ومنه صنفوا كتاب « المجسطى » الذى كان مادة الدراسة فى جامعات أوربا فى العصور الوسطى . وايروتستين Erotosthenes وهو أول من قاس محيط الكرة الارضية بواسطة قياس الدرجات بين الاسكندرية واسوان فوجده ٤٢ الف كيلو متر وهو غير بعيد من الحقيقة . وايبرخس Hipparchis المشهور بخريطته التى وضعها للنجوم . وتسبيوس Ctesibius مخترع السيفون والمضخة الكابسة ومضخة الحريق . وهيرون Heron أول مفكر فى صنع الآلات البخارية وقد صنع آلة منها فعلا . واريستارك Aristarque de Samos أول القائلين بان الارض كوكب من كواكب النظام الشمسى وان الشمس مركز تدور حوله الكواكب الاخرى . وتيوفراست Théophraste الذى يعتبر أول واضع لاساس علم النباتات

فهذه كما ترى سلسلة طويلة من العلماء اليونانيين جاءوا كلهم مصر فدخلوا مدارسها وتعلموا علومها وكانت هذه العلوم هي التى جعلت منهم بعد ذلك علماء وفلاسفة . فليس لقائل أن يقول ان

اليونانيين لم يتصلوا بالمدنية المصرية وانهم من أجل ذلك أغفلوها . اذ الحق انهم لم يتصلوا بها فقط وانما استقوا منها كما استقى منهم العرب بعد ذلك . فلو انهم فعلوا مافعله العرب معهم فحملوا العلوم المصرية فى كتبهم معزوة الى أصحابها والمبرزين فيها لانتقلت منهم الى العرب ثم من العرب الينا بعد ذلك

نتنقل الآن إلى المدنية الرومانية لنرى كيف كان مسلكها نحو العلوم المصرية . نشأت المدنية الرومانية فى الوقت الذى كانت فيه المدنية المصرية تلفظ نفسها الاخير . ويقول بعض المؤرخين ان الحرائق التى أشعلها يوليوس قيصر فى الاسكندرية هى التى دمرت مكتبتها الكبيرة التى كانت تحوى من اوراق البردى ما يشتمل على كل علوم المصريين ، وينفى الاستاذ برستيا الآن هذه التهمة عن يوليوس قيصر فى كتابه الذى وضعه منذ سنوات عن الاسكندرية وتاريخها . ولكن الذى يهمنا هنا هو أن المدنية الرومانية وان كانت قد نشأت فى الجزء الاخير من عهد المدنية اليونانية الا أن نشوءها هذا شهد احتضار المدنية المصرية وشهد على الخصوص مدرسة الاسكندرية

ولما بلغت المدنية الرومانية اوجها كانت مدرسة الاسكندرية قد دمرت وكانت دور الكتب المصرية قد أحرقت وكانت اللغة المصرية نفسها قد دخلت فى دور الاحتضار

ولم يكن اتصال المدنية الرومانية بالعلوم المصرية وثيقا كما هو الشأن مع المدنية اليونانية . ولكن مما لا شك فيه أن الرومانيين كانوا ينظرون فى ذلك الوقت الى مصر باعتبار انها بلد العلم والحضارة ، وكانوا يرون مجدها كانه لا يزال حاضراً أمام أعينهم فلا يقبل العقل الا انهم اخذوا منها واقتدوا بها فى تأسيس مجدهم اساسه العلم والحضارة

وقد كان القانون الرومانى من اعظم مخلفات المدنية الرومانية من العلم اذا لم نقل انه اعظمها جميعا ، فانظر مايقوله فيه الأستاذ ريفيو (١) احد العلماء الذين كتبوا عن مصر . قال : « ان كل ما يسمى قانونا فى وصايا الالواح الاثنى عشر انما اخذ من قانون مصر . فحقوق الافراد وحقوق الامم التى يتكلم عنا المشرعون الرومانيون وحق المدنية لم تكن من مخترعات عقولهم بل من الحقوق التى وضعت من قبلهم . والمستندات الكثيرة والنصوص والوثائق القضائية التى وصلت الينا من مصر وكلدة تدل على ان المصريين والكلدانيين هم الذين ابتدعوا تلك القوانين من آلاف السنين ، عدا انهم اساتذة الاغريق وائمتهم وقدوتهم فى كل امور المدنية »

ومن هنا يمكننا ان نعرف ان مسلك المدنية الرومانية مع العلوم المصرية لا يختلف عن مسلك المدنية اليونانية

وهذا المسلك يتلخص فى ان هاتين المدنيتين اتصلتا بالمدنية المصرية واخذتا من علومها كل عناصر حياتهما ولكنهما تجاهلتاها . وبحسبنا ان نكون قد اثبتنا هذا التجاهل لاننا لا نريد غرضا آخر

---

(١) نقلنا هذا عن الدكتور جوستاف لوبون في كتابه « الحضارة المصرية »

يا زمان !

للأستاذ فهيم الدين الزركلي

متى ترى ، تَبْسم لى ، يا زمان ؟
ألا حَنانْ !
أسلمتَنى ، لا أُنسَ لى ، لا أمان ،
للحدَثان ْ !
عيناىَ ـ لمَّا تبرحا ـ تجريان ،
نَضَّاختان ْ !
أبكى ربوعًا لا تُطيقُ الهوانْ ،
رَهْنَ امتهانْ !

* * *

أبكي ديارًا خُلقت للجَمالْ
أبهى مِثال
أبكى تُراثَ العزّ ، والعزُّ غال
صَعبُ المنال !
أبكى نفوسًا قعدتْ بالرجال
عن النضالْ !
أبكى جَلالَ المُلك كيف استحال
إلى خَيَال !

* * *

مالرحابي وجِنان الرِحابْ
آضتْ يَبابْ !

ما لبنيها ، كلهم في اكتئاب
أسرى عذاب !
أين أولو طِعانِها والضِراب
أين الحِراب !
ما بالُ شيبٍ عُرْبِها والشّباب
غيرَ غِضاب !

* * *

ضاعتْ بلادي يا زمانَ الصّغارْ
والاندثارْ !
الناسُ يبنونَ ، وما في الديار
غيرُ الدّمار
أما ترى الغَرب تعلّى وطار
فوقَ البحار
وأمّتي هاوية في انحدار
بئسَ القرار !

* * *

يا رَمنَ الشؤم ، سقيتَ الشآم
كأسَ حمامْ !
القبلتان اشتكتا ، والمقام !
مما نسام !
الى متى نبقى اسارى انقسام
ونستضام ؟
مصر تناجيك ودار السلام :
مل المقام . . ؟